
سلسلة وسائل ترشيد الصحوة
٢
الإسلام والفن
الدكتور يوسف القرضاوي
دار الفرقان
للنشر والتوزيع

الإسلام والفن

سلسلة رسائل في ترشيد الصحوة

(٢)

الإسلام والفن

DL

دكتور يوسف القرضاوي

طبعة الفرقان الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٦/٦/٨٤٦+)

رقم التصنيف : ٢١٠,٤٧
المؤلف ومن في حكمه : يوسف القرضاوي
سلسلة رسائل ترشيد الصحوة (٢)
عنوان المصنف : الاسلام والفن ج٢
رؤوس الموضوعات : ١ - الديانات
٢ - الاسلام والفنون
رقم الايداع : (١٩٩٦/٦/٨٤٦)
الملاحظات : عمان / دار الفرقان

* تم اعداد بيانات الفهرسة الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار الفرقان للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس، مقابل وزارة التربية والتعليم
تلفون: ٦٤٠٩٣٧ - ٦٤٥٩٣٧ - ٦٢٨٣٦٢
ص. ب (٩٢١٥٢٦)، عمان - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

أما بعد . . .

فقد قلت فى كتابى « بيِّنات الحل الإسلامى » : لعل « الفن » هو أكثر ما يشغب به على دعاة « الحل الإسلامى » فهم يقولون : إنكم تدعون إلى حياة تحرم فيها البسمة على كل فم ، والبهجة على أى قلب ، والزينة فى أى موقع ، والإحساس بالجمال فى أى صورة .

وأحب أن أقول : إن هذا الكلام لا أساس له من دين الله . وإذا كان روح الفن هو الشعور بالجمال ، والتعبير عنه ، فالإسلام أعظم دينٍ - أو مذهب - غرس حب الجمال والشعور به فى أعماق كل مسلم .

وقارئ القرآن الكريم يلمس هذه الحقيقة بوضوح وجلاء وتوكيد ، فهو يريد من المؤمن أن ينظر إلى الجمال مبثوثاً فى الكون كله ، فى لوحات ربَّانية رائعة الحُسن ، أبدعتها يد الخالق المصوِّر ، الذى أحسن خلق كل شىء ، وأتقن تصوير كل شىء : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (١) ، ﴿ مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ (٢) ، ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٣) .

ثم نرى القرآن الكريم يلفت الأنظار ، وينبه العقول والقلوب ، إلى الجمال الخاص لأجزاء الكون ومفرداته . .

إن القرآن بهذا كله ، وبغيره ، يريد أن يوقظ الحس الإنسانى ، حتى يشعر بالجمال الذى أودعه الله فينا وفى الطبيعة من فوقنا ، ومن تحتنا ، ومن حولنا . وأن نملأ عيوننا وقلوبنا من هذه البهجة ، وهذا الحُسن المبثوث فى الكون كله .

وبعض الحضارات تغفل هذا الجانب وتوجه أكبر همها

---

(١) السجدة : ٧ (٢) الملك : ٣

(٣) النمل : ٨٨

إلى محاولات الإنسان إلى نقل جمال الطبيعة على حجر أو ورق ، أو غير ذلك ، فهو يرى السماء أو البحر أو الجبل ، أو الأنعام ، ولا يلتفت إلى ما فيها من سر الجمال الإلهى ، وإنما يلتفت إليها حين تُنقل إلى لوحة ، أو صورة مشكَّلة ، فليت شِعرى أيهما أهم وأقوى تأثيراً فى النفس البَشرية : الأصل الطبيعى أم الصورة المقلَّدة ؟؟

إن الإسلام يحيى الشعور بالجمال ، ويؤيد الفن الجميل ، ولكن بشروط معيَّنة ، بحيث يصلح ولا يفسد ، ويبنى ولا يهدم .

وقد أحيا الإسلام ألواناً من الفنون ، ازدهرت فى حضارته وتميزت بها عن الحضارات الأخرى مثل فن الخط والزخرفة والنقوش : فى المساجد ، والمنازل ، والسيوف ، والأوانى النحاسية والخشبية والخزفية وغيرها .

كما اهتم بالفنون الأدبية التى نبغ فيها العرب من قديم ، وأضافوا إليها ما تعلَّموه من الأُمم الأُخرى ، وجاء القرآن يمثل قمة الفن الأدبى ، وقراءة القرآن وسماعه عند مَن عقل وتأمل إنما هما غذاء للوجدان والروح لا يعدله ولا يدانيه

غذاء ، وليس هذا لمضمونه ومحتواه فقط ، بل لطريقة أدائه أيضاً ، وما يصحبها من ترتيل وتجويد وتحبير تستمتع به الآذان ، وتطرب له القلوب ، وخصوصاً إذا تلاه قارئ حسن الصوت ، ولهذا قال النبى ﷺ لأبى موسى : « لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود » (١) .

ولا مراء فى أن موضوع « الفن » موضوع فى غاية الخطر والأهمية ، لأنه يتصل بوجدان الشعوب ومشاعرها ، ويعمل على تكوين ميولها وأذواقها ، واتجاهاتها النفسية ، بأدواته المتنوعة والمؤثرة ، مما يُسمع أو يُقرأ ، أو يُرى أو يُحس أو يُتأمل .

ولا مراء فى أن الفن كالعلم ، يمكن أن يُستخدم فى الخير والبناء ، أو فى الشر والهدم ، وهنا خطورة تأثيره .

ولأن الفن وسيلة إلى مقصد ، فحكمه حكم مقصده ، فإن استُخْدِمَ فى حلال فهو حلال ، وإن استُخدم فى حرام فهو حرام .

---

(١) رواه البخارى والترمذى .

وقد عرضتُ لموضوع « الفن » وموقف الإسلام منه ، فى أكثر من كتاب لى ، عرضتُ له فى كتابى « الحلال والحرام فى الإسلام » فى فصل « اللّهو والترفيه فى حياة المسلم » ، وفى الحديث عن الصور والتصوير ، وفى مواضع أخرى .

وعرضتُ له فى كتابى « فتاوى معاصرة » فى جزئه الأول ، وجزئه الثانى ، فى فتاوى متعددة حول التصوير والغناء ، بآلة وبغير آلة ، والدين والضحك ، واللَّعب بالشطرنج ، وغيرها .

وعرضتُ بتفصيل أوفى فى هذا البحث الذى يتناول « الفنون » بأنواعها المختلفة ، المسموع منها والمشاهَد ، وألوان اللَّهو واللَّعب ، ما يُضحك وما يُبكى ، وذلك باعتباره ملمحاً بارزاً من « ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده » . وفصل الفن واللَّهو فصل أساسى من كتابنا هذا عن ملامح المجتمع .

وقد قرأ بعض الإخوة من الدعاة وأهل العلم والفكر هذا البحث ، أو هذا الفصل ، فوجدوه وافياً فى موضوعه ،

مقنعاً فى أدلته ، أصيلاً فى نظرته ، معاصراً بواقعيته ، فطلبوا إلىّ أن أفرده بالنشر ، ليعم النفع به ، فقد لا يلتفت الناس إليه وهو جزء من كتاب كبير ، وقد يتعسر على بعض الناس شراؤه .

فلم أجد بداً من الاستجابة لهم ، راجياً أن ينفع الله بهذا البحث كل مَن قرأه ، وأن يجزى خيراً كل مَن شَهره ونشره .

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

القاهرة : ربيع الأول ١٤١٦ هـ - أغسطس (آب) ١٩٩٥ م .

د . يوسف القرضاوى

* * *

اللَّهـو والفنـون

● غياب الحقيقة بين الغلو والتفريط :

لعل أغمض الموضوعات وأعقدها فيما يتعلق بالمجتمع المسلم : اللَّهو والفنون .

وذلك أن أكثر الناس وقعوا فى هذا الأمر بين طرفى الغلو والتفريط . نظراً لأنه أمر يتصل بالشعور والوجدان ، أكثر مما يتصل بالعقل والفكر ، وما كان شأنه كذلك فهو أكثر قبولاً للتطرف والإسراف من ناحية ، فى مقابلة التشدد والتزمت من ناحية أُخرى .

فهناك مَن يتصوَّرون المجتمع الإسلامى مجتمع عبادة ونُسُك ، ومجتمع جد وعمل ، فلا مجال فيه لمن يلهو ويلعب ، أو يضحك ويمرح ، أو يغنى ويطرب . لا يجوز لشفة فيه أن تبتسم ، ولا لسنّ أن تضحك ، ولا لقلب أن يفرح ، ولا لبهجة أن ترتسم على وجوه الناس !!

وربما ساعدهم على ذلك سلوك بعض المتدينين ، الذين لا ترى أحدهم إلا عابس الوجه ، مقطب الجبين ، كاشر الناب ، وذلك لأنه إنسان يائس أو فاشل أو مريض بالعقد والالتواءات النفسية ، ولكنه برر ذلك السلوك المعيب باسم الدين ، أى أنه فرض طبيعته المنقبضة المتوجسة على الدين ، والدين لا ذنب له ، إلا سوء فهم هؤلاء له ، وأخذهم ببعض نصوصه دون بعض .

وقد يجوز لهؤلاء أن يشددوا على أنفسهم إذا اقتنعوا بذلك ، ولكن الخطر هنا : أن يعمموا هذا التشديد على المجتمع كله ، ويلزموه برأى رأوه ، فى أمر عمَّت به البلوى ، ويمس حياة الناس كافة .

وعلى العكس من هؤلاء : الذين أطلقوا العنان لشهوات أنفسهم ، فجعلوا الحياة كلها لهواً ولعباً ، وأذابوا الحواجز بين المشروع والممنوع .. بين المفروض والمرفوض .. بين الحلال والحرام .

فتراهم يدعون إلى الانحلال ، ويروجون الإباحية ، ويشيعون الفواحش ما ظهر منها وما بطن باسم الفن ،

أو الترويح ، ونسوا أن العبرة بالمسميات والمضامين ، لا بالأسماء والعناوين . والأمور بمقاصدها .

لهذا كان لا بد من نظرة منصفة إلى الموضوع - بعيداً عن إفراط هؤلاء ، وتفريط أُولئك - فى ضوء النصوص الصحيحة الثبوت ، الصريحة الدلالة ، وفى ضوء مقاصد الشريعة وقواعد الفقه المقررة كذلك .

ولا أستطيع فى هذا المجال التفصيل ، فقد كتبت فى مفردات الموضوع فى أكثر من كتاب لى . وخصوصاً فى « الحلال والحرام فى الإسلام » ، و « فتاوى معاصرة » الجزء الأول والجزء الثانى . . وعلى الأخص الثانى .

* *

• واقعية الإسلام فى التعامل مع الإنسان كله :

والخلاصة التى أود أن أذكرها هنا تتمثل فى هذه المبادئ أو الحقائق :

إن الإسلام دين واقعى ، فهو يتعامل مع الإنسان كله : جسمه وروحه ، وعقله ووجدانه ، ويطالبه أن يغذيها جميعاً ،

بما يشبع حاجتها ، فى حدود الاعتدال ، الذى هو صفة « عباد الرحمن » : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ (١) ، وليس هذا خُلُقهم فى أمر المال فقط ، بل هو خُلُقٌ أساسى عام فى كل الأمور ، هو المنهج الوَسَط للأُمة الوسَطَ .

وإذا كانت الرياضة تغذى الجسم ، والعبادة تغذى الروح ، والعلم يغذى العقل ، فإن الفن يغذى الوجدان .

ونريد بالفن : النوع الراقى الذى يسمو بالإنسان ، لا الذى يهبط به .

* *

● القرآن ينبه على عنصرى المنفعة والجمال فى الكون :

وإذا كانت روح الفن هى الإحساس بالجمال وتذوقه ، فهذا ما عنى القرآن بالتنبيه عليه وتأكيده فى أكثر من موضع .

---

(١) الفرقان : ٦٧ بلفظ : ﴿ وَالَّذِينَ . . . ﴾ .

فهو يلفت النظر بقوة إلى عنصر « الحُسْن » أو « الجمال » الذى أودعه الله فى كل ما خلق ، إلى جوار عنصر « النفع » أو « الفائدة » فيها .

كما أنه شرع للإنسان الاستمتاع بالجمال أو « الزينة » مع المنفعة أيضاً .

يقول الله تعالى فى معرض الامتنان بالأنعام : ﴿ وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١) ، وفى هذا تنبيه على جانب المنفعة والفائدة ، ثم يقول : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (٢) ، فهذا تنبيه على الجانب الجمالى ، حيث يلفتنا إلى هذه اللَّوحة الربَّانية الرائعة ، التى لم ترسمها يد فنان مخلوق ، بل رسمتها يد الخالق سبحانه .

وفى نفس السياق يقول سبحانه : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ (٣) ، فالركوب يحقق منفعة مادية مؤكدة ، أما الزينة فهى متعة جمالية فنية ، بها يتحقق التكامل للوفاء بحاجات الإنسان ، كل الإنسان .

---

(١) النحل : ٥ (٢) النحل : ٦

(٣) النحل : ٨

وفى هذا السياق من نفس السورة امتنَّ الله تعالى بتسخير البحر فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[1] فلم يقصر فائدة البحر على العنصر المادى المتمثل فى اللَّحم الطرى الذى يؤكل ، فينتفع به الجسم ، بل ضم إليه الحلية التى تُلبس للزينة ، فتستمتع بها العين والنفس .

وهذا التوجيه القرآنى تكرر فى أكثر من مجال ، ومن ذلك : مجال النبات والزرع والنخيل والأعناب والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، يقول تعالى فى موضع من سورة الأنعام : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُواْ ﴾[2] .

وفى موضع آخر من نفس السورة يقول بعد ذكر الزرع وجنَّات النخيل والعنب : ﴿ انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

فكما أن الجسم فى حاجة إلى الأكل من الثمر إذا أثمر ،

---

(١) النحل : ١٤ (٢) الأنعام : ١٤١

(٣) الأنعام : ٩٩

فإن النفس فى حاجة إلى الاستمتاع بالنظر إلى ثمره إذا أثمر وينعه . وبهذا يرتفع الإنسان أن يكون همه الأول أو الأوحد هو هم البطن !

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ؟ (١) .

فأخذ الزينة لحاجة الوجدان ، والأكل والشرب لحاجة الجثمان ، وكلاهما مطلوب .

وكذلك نجد الاستفهام الإنكارى فى الآية الثانية ينصبّ على أمرين : تحريم ﴿ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ ، وتحريم ﴿ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ و﴿ زِينَةَ اللهِ ﴾ ، تجسد عنصر الجمال الذى هيأه الله لعباده ، بجوار عنصر المنفعة الذى يتمثل فى ﴿ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ . . وتأمل هذه الإضافة - إضافة كلمة «زينة» - إلى لفظ الجلالة : ﴿ زِينَةَ اللهِ ﴾ ففيها تشريف لهذه الزينة وتنويه بها .

---

(١) الأعراف : ٣١

وفى هذا السياق جاء قبل هاتين الآيتين قوله تعالى فى شأن اللِّباس : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (١) ، فقد جعلت الآية اللِّباس - الذى امتنَّ الله تعالى بإنزاله - أنواعاً ، وإن شئت قلت : جعلت له مقاصد ومهمات : مقصد « الستر » المعبَّر عنه بقوله : ﴿ يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ ﴾ ، ومقصد « التجمل والزينة » المعبَّر عنه بقوله : ﴿ وَرِيشاً ﴾ ومقصد « الوقاية » من الحر والبرد ، المعبَّر عنه بقوله : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ .

* *

● المؤمن عميق الإحساس بالجمال فى الكون والحياة والإنسان :

إن المتجول فى رياض القرآن يرى بوضوح : أنه يريد أن يغرس فى عقل كل مؤمن وقلبه الشعور بالجمال المبثوث فى

---

(١) الأعراف : ٢٦

أجزاء الكون من فوقه ومن تحته ومن حوله : في السماء ، والأرض ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان .

في جمال السماء يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (١) .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (٢) .

وفي جمال الأرض ونباتها يقرأ : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ (٤) .

وفي جمال الحيوان يقرأ ما ذكرناه قبل عن الأنعام : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (٥) .

وفي جمال الإنسان يقرأ : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

---

(١) سورة ق : ٦

(٢) الحجر : ١٦

(٣) سورة ق : ٧

(٤) النمل : ٦٠

(٥) النحل : ٦

صُوَرَكُمْ ﴾ (١) ، ﴿ الَّذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٢) .

إن المؤمن يرى يد الله المبدعة فى كل ما يشاهده فى هذا الكون البديع ، ويبصر جمال الله فى جمال ما خلق وصوَّر ، يرى فيه ﴿ صُنْعَ الله الَّذى أتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٣) ، ﴿ الَّذِى أحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (٤) .

وبهذا يحب المؤمن الجمال فى كل مظاهر الوجود من حوله ؛ لأنه أثر جمال الله جلَّ وعلا .

وهو يحب الجمال كذلك ؛ لأن « الجميل » اسم من أسمائه تعالى الحُسْنى وصفة من صفاته العلا .

وهو يحب الجمال أيضاً ، لأن ربه يحبه ، فهو جميل يحب الجمال .

* *

---

(١) التغابن : ٣ (٢) الانفطار : ٧ ، ٨

(٣) النمل : ٨٨ (٤) السجدة : ٧

• إنّ الله جميل يحب الجمال :

وهذا ما علَّمه النبى ﷺ لأصحابه ، وقد توهم بعضهم أن الولع بالجمال ينافى الإيمان ، أو يُدخل صاحبه فى دائرة الكِبْر المقيت عند الله وعند الناس .

روى ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل الجنَّة مَن كان فى قلبه مثقال ذَرَّة من كِبْر » ، فقال رجل : إنَّ الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة . قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكِبْر بطر الحق وغمط الناس » [(١)] .

* *

• القرآن معجزة جَمالية :

والقرآن الكريم آية الإسلام الكبرى ، ومعجزة الرسول العظمى : يعتبر معجزة جَمالية ، إضافة إلى أنه معجزة عقلية ، فقد أعجز العرب بجمال بيانه ، وروعة نظمه وأسلوبه ، وتفرد لحنه وموسيقاه ، حتى سمَّاه بعضهم : سحراً .

---

(١) رواه مسلم .

وقد بيَّن علماء البلاغة وأدباء العربية وجه الإعجاز البيانى أو الجَمالى فى هذا الكتاب ، منذ عبد القاهر إلى الرافعى وسيد قطب وبنت الشاطئ وغيرهم فى عصرنا .

ومن المطلوب فى تلاوة القرآن أن ينضم جَمال الصوت والأداء إلى جَمال البيان والنظم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [1] .

وقال الرسول ﷺ : « زيِّنوا القرآن بأصواتكم » [2] ، وفى لفظ آخر : « فإنّ الصوت الحسن يزيد القرآن حُسْناً » [3] .

وقال : « ليس منا مَن لم يتغنّ بالقرآن » [4] ، ولكن التغنىّ المطلوب لا يعنى التلاعب أو التحريف .

---

(١) المزمل : ٤ (٢) رواه مسلم .

(٣) رواه باللَّفظ الأول : أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والدارمى ، وباللَّفظ الآخر : الدارمى والحاكم ، كلهم عن البراء كما فى صحيح الجامع الصغير (٣٥٨٠) ، (٣٥٨١) .

(٤) رواه البخارى عن أبى هريرة ، ورواه آخرون عن عدد من الصحابة .

وقال عليه الصلاة والسلام لأبى موسى : « لو رأيتنى وأنا أستمع قراءتك البارحة ! لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود » ! فقال أبو موسى : لو علمتُ ذلك لحبّرته لك تحبيراً » !![1] يعنى : زدتُ فى تجويده وإتقانه وتحسين الصوت به .

وقال : « ما أذن الله لشئ ، ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنَّى بالقرآن ، يجهر به »[2] .

ولقد سمعتُ شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله يحكى لنا عن موقف له فى المجلس الأعلى للإذاعة ، وقد كان عضواً فيه : أنهم أرادوا أن يجعلوا وقت قراءة القرآن فى الافتتاح والختام وبعض الفترات محسوباً على نصيب الدين فقط ، فقال لهم : إن سماع القرآن ليس

---

(١) رواه مسلم عن أبى موسى ، ورواه البخارى وغيره عن جمع من الصحابة بألفاظ أُخر .

(٢) رواه أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٥٥٢٥) .

ديناً فقط . إنه استمتاع أيضاً بالفن والجمال المودع فى القرآن ، والمؤدَّى بأحسن الأصوات .

وهذا صحيح .. فالقرآن دين وعلم وأدب وفن معاً . فهو يغذى الروح ، ويقنع العقل ، ويوقظ الضمير ، ويمتع العاطفة ، ويصقل اللِّسان .

* *

● التعبير عن الجمال :

وإذا كان الإسلام قد دعا إلى الإحساس بالجمال وتذوقه وحبه ، فإنه قد شرع التعبير عن هذا الإحساس والتذوق والحب بما هو جميل أيضاً .

* *

● فنون القول والأدب :

وأبرز ما يتجلى ذلك فى فنون القول من الشعر والنثر والمقامة والقصة والملحمة ، وسائر فنون الأدب ، وقد استمع النبى ﷺ إلى الشعر وتأثر به ، ومنه قصيدة كعب ابن زهير الشهيرة « بانت سعاد » وفيها من الغَزَل ما هو

معروف ، وقصيدة النابغة الجعدى ، ودعا له ، ووظف الشعر فى خدمة الدعوة والدفاع عنها ، كما صنع مع حسان . واستشهد بالشعر كما فى قوله : « أصدق كلمة قالها شاعر : كلمة لبيد : ألا كل شئ ما خلا الله باطل » [١] .

واستشهد أصحابه بالشعر ، وفسَّروا به معانى القرآن ، بل منهم مَن قاله ، وأجاد فيه ، كما يُروى عن علىّ كرّم الله وجهه . وهناك عدد كبير من الصحابة كانوا شعراء .

وكثير من الأئمة الكبار كانوا شعراء ، مثل الإمام عبد الله بن المبارك ، والإمام محمد بن إدريس الشافعى وغيرهما .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنّ من الشعر حكمة » [٢] ، « إنّ من البيان لسحراً » [٣] ، « إنَّ من البيان سحراً ، وإنَّ من الشعر حكماً » [٤] .

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة .

(٢) متفق عليه عن أُبىّ ، وقد روى عن جمع من الصحابة . صحيح الجامع الصغير (٢٢١٩) .

(٣) رواه مالك وأحمد والبخارى وأبو داود والترمذى عن ابن عمر . المصدر السابق (٢٢١٦) .

(٤) رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس . المصدر نفسه (٢٢١٥) .

ومفهوم الحديث أنَّ من الشعر ما هو بعيد عن الحكمة ، بل هو نقيضها ، مثل شعر المديح بالباطل ، والفخر الكاذب ، والهجاء المتعدى ، والغَزَل المكشوف ، ونحو ذلك مما لا يتفق مع القيم الأخلاقية والمُثُل العليا .

ولهذا ذمَّ القرآن الشعراء الزائفين والمزيِّفين ، الذين لا يتورعون عن شئ ، والذين تُكذِّب أفعالهم أقوالهم . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا . . . ﴾ (١) .

فالشعر - والأدب عامة ، والفن بوجه أعم - له هدف ووظيفة ، وليس سائباً ، فهو شعر ملتزم ، وأدب ملتزم ، وفن ملتزم .

أما القوالب التى يظهر فيها الشعر أو الأدب فلا مانع

---

(١) الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٧

من تغيرها وتطورها ، واقتباس ما يلائمنا مما عند غيرنا . . المهم هو الهدف والمضمون والوظيفة .

اخترع العرب قديماً قوالب فى الشعر كالموشحات ، وغيرها . ولهذا لا بأس من قبول القوالب الجديدة فى الشعر المعاصر . كالشعر الحر .

كذلك ابتكر العرب فى العصور الإسلامية قوالب أدبية كالمقامات ، والقصص الخيالية ، كما فى « رسالة الغفران » ، و « ألف ليلة وليلة » وترجموا مثل « كليلة ودمنة » ، وألَّف المتأخرون الملاحم الشعبية مثل قصة « عنترة » ، و« سيرة بنى هلال » إلى غير ذلك من القوالب .

وفى عصرنا يمكننا أن نستحدث من القوالب ما شئنا ، وأن نقتبس من غيرنا ما ينفعنا ، كالمسرحية والرواية والقصة القصيرة .

والذى نود تأكيده هنا هو ضرورة الالتزام بالعربية الفصحى ، والحذر من المحاولات المشبوهة لترويج اللَّهجات العامية المختلفة للشعوب العربية ، فإنها تهدف إلى المباعدة بينها وبين القرآن والسُّنَّة ، كما تهدف إلى

تثبيت الفُرْقة والتجزئة الإقليمية ، التى تحرص على بقائها القوى المعادية للعروبة والإسلام .

ويغنى عن ذلك اللُّغة السهلة التى تفهم الجماهير العربية بها نشرات الأخبار فى الإذاعة والتلفاز ، وتفهم بها الصحف التى تطالعها كل يوم .

كما أن الفصحى هى التى تقرِّب بين العرب وسائر أبناء الإسلام ممن يتعلمون العربية ، فإنهم لا يتعلمون إلا الفصحى ، ولا يستطيعون التفاهم مع الجميع إلا بها .

وقد وُجِهَت إلىّ فى أكثر من مكان أسئلة حول شرعية بعض القوالب الإسلامية الأدبية كالمسرحية والقصة ، حيث يخترع القصَّاص أو المؤلف المسرحى شخصيات ، ويُنطقها بأقوال وأُمور لم تحدث فى الواقع ، فهل يدخل هذا فى دائرة الكذب المحرَّم شرعاً ؟

وكان جوابى : إن هذا لا يدخل فى الكذب المحظور ؛ لأن السامع يعرف جيداً أن المقصود ليس هو إخبار القارئ بوقائع حدثت بالفعل . إنما هو أشبه بالكلام الذى يُحكى على ألسنة الطيور والحيوانات ، فهو من باب التصوير

الفنى واستنطاق الأشخاص بما يمكن أن ينطقوا به فى هذا الموقف . كما حكى القرآن عما تكلمت به « النملة » أو نطق به « الهدهد » أمام سليمان عليه السلام . فمن المؤكد أنهما لم يتحدثا بهذا الكلام العربى المبين ، إنما ترجم القرآن عما يمكن أن يكون قولهما فى هذا الوقت ، وذلك الموقف .

وقد شاركتُ شخصياً فى التأليف المسرحى بعملين :

أحدهما : مسرحية شِعرية عن « يوسف الصِّدِّيق » عليه السلام . وذلك فى مطلَع حياتى الأدبية ، وأنا فى السنة الأولى من المرحلة الثانوية ، وكنتُ متأثراً فى ذلك بمسرحيات شوقى الشهيرة .

والثانى : مسرحية تاريخية عن سعيد بن جبير والحجَّاج ابن يوسف ، سميتها « عالِم وطاغية » وقد مُثِّلت فى أكثر من بلد ، ولاقت قبولاً حَسناً . بخلاف الأولى ؛ لأنها تتعلق بقصة نبى مرسل ، والاتفاق بين علماء العصر منعقد على أن الأنبياء لا يُمَثَّلون .

* * *

فن الجمال المسموع
(الغناء والموسيقى)

لقد تبين لنا فيما ذكرناه من خلال النصوص : عناية الإسلام بالجمال ، وحرصه على تربية تلك الحاسة التى تجعل الإنسان يشعر بالجمال ويتذوقه فى مجالاته المتنوعة .

ومن الجمال ما يتجلى لحاسة السمع ، ومنه ما يتجلى لحاسة البصر ، ومنه ما يتجلى لحواس أُخرى .

ونريد هنا أن نتحدث عن « الجمال المسموع » ، وبعبارة أُخرى : عن الغناء ، سواء أكان بآلة موسيقية أم بغير آلة ، ويلزمنا أن نجيب عن هذا السؤال الكبير : ما حكم الإسلام فى الغناء والموسيقى ؟

* *

• ما حكم الإسلام فى الغناء والموسيقى ؟

سؤال يتردد على ألسنة كثيرين فى مجالات مختلفة وأحيان شتَّى .

سؤال اختلف جمهور المسلمين اليوم فى الإجابة عليه ، واختلف سلوكهم تبعاً لاختلاف أجوبتهم ، فمنهم مَن يفتح أُذنيه لكل نوع من أنواع الغناء ، ولكل لون من ألوان الموسيقى مدعياً أن ذلك حلال طيب من طيبات الحياة التى أباح الله لعباده .

ومنهم مَن يغلق الراديو أو يغلق أُذنيه عند سماع أية أغنية قائلاً : إنّ الغناء مزمار الشيطان ، ولهو الحديث ويصد عن ذِكر الله وعن الصلاة ، وخاصة إذا كان المغنّى امرأة ، فالمرأة - عندهم - صوتها عَوْرة بغير الغناء ، فكيف بالغناء ؟ ويستدلون لذلك بآيات وأحاديث وأقوال .

ومن هؤلاء مَن يرفض أى نوع من أنواع الموسيقى ، حتى المصاحبة لمقدمات نشرات الأخبار .

وقف فريق ثالث متردداً بين الفريقين ؛ ينحاز إلى

هؤلاء تارة ، وإلى أُولئك طوراً ، ينتظر القول الفصل والجواب الشافى من علماء الإسلام فى هذا الموضوع الخطير ، الذى يتعلق بعواطف الناس وحياتهم اليومية ، وخصوصاً بعد أن دخلت الإذاعة - المسموعة والمرئية - على الناس بيوتهم ، بجدها وهزلها ، وجذبت إليها أسماعهم بأغانيها وموسيقاها طوعاً وكرهاً .

والغناء بآلة - أى مع الموسيقى - وبغير آلة : مسألة ثار فيها الجدل والكلام بين علماء الإسلام منذ العصور الأولى ، فاتفقوا فى مواضع واختلفوا فى أُخرى .

اتفقوا على تحريم كل غناء يشتمل على فحش أو فسق أو تحريض على معصية ، إذ الغناء ليس إلا كلاماً ، فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، وكل قول يشتمل على حرام فهو حرام ، فما بالك إذا اجتمع له الوزن والنغم والتأثير ؟

واتفقوا على إباحة ما خلا من ذلك من الغناء الفطرى الخالى من الآلات والإثارة ، وذلك فى مواطن السرور المشروعة ، كالعرس ، وقدوم الغائب ، وأيام الأعياد ... ونحوها ، بشرط ألا يكون المغنى امرأة فى حضرة أجانب منها .

وقد وردت فى ذلك نصوص صريحة - سنذكرها فيما بعد .

واختلفوا فيما عدا ذلك اختلافاً بيِّناً : فمنهم مَن أجاز كل غناء بآلة وبغير آلة ، بل اعتبره مستحَباً ، ومنهم مَن منعه بآلة وأجازه بغير آلة ، ومنهم مَن منعه منعاً باتاً بآلة وبغير آلة ، وعدَّه حراماً ، بل ربما ارتقى به إلى درجة « الكبيرة » .

ولأهمية الموضوع نرى لزاماً علينا أن نفصِّل فيه بعض التفصيل ، ونلقى عليه أضواء كاشفة لجوانبه المختلفة ، حتى يتبين المسلم الحلال فيه من الحرام ، متبعاً للدليل الناصع ، لا مقلِّداً قول قائل ، وبذلك يكون على بيِّنة من أمره ، وبصيرة من دينه .

* *

● الأصل فى الأشياء الإباحة :

قرر علماء الإسلام أن الأصل فى الأشياء الإباحة لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [1] ،

---

(١) البقرة : ٢٩

ولا تحريم إلا بنص صحيح صريح من كتاب الله تعالى ، أو سُنَّة رسوله ﷺ ، أو إجماع ثابت متيقن ، فإذا لم يرد نص ولا إجماع . أو ورد نص صريح غير صحيح ، أو صحيح غير صريح ، بتحريم شيء من الأشياء ، لم يؤثر ذلك في حلّه ، وبقي في دائرة العفو الواسعة ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ (١) .

وقال رسول الله ﷺ : « ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال ، وما حرَّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإنّ الله لم يكن لينسى شيئاً » ، وتلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ (٢) .

وقال : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » (٣)

---

(١) الأنعام : ١١٩

(٢) رواه الحاكم عن أبي الدرداء وصحّحه ، وأخرجه البزّار - والآية من سورة مريم : ٦٤

(٣) أخرجه الدارقطني عن أبي ثعلبة الخشني ، وحسّنه الحافظ أبو بكر السمعاني في أماليه ، والنووي في الأربعين .

وإذا كانت هذه هى القاعدة ، فما هى النصوص والأدلة التى استند إليها القائلون بتحريم الغناء ، وما موقف المجيزين منها ؟

* *

● أدلة المحرِّمين للغناء ومناقشتها :

(أ) استدلَّ المُحَرِّمون بما روى عن ابن مسعود وابن عباس وبعض التابعين : أنهم حرَّموا الغناء محتجين بقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيث لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١) ؛ وفسَّروا لَهْو الحديث بالغناء .

قال ابن حزم : « ولا حُجَّة فى هذا لوجوه :

أحدها : أنه لا حُجَّة لأحد دون رسول الله ﷺ .

والثانى : أنه قد خالف غيرهم من الصحابة والتابعين .

---

(١) لقمان : ٦

والثالث : أن نص الآية يُبطل احتجاجهم بها ؛ لأن فيها : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ ، وهذه صفة مَن فعلها كان كافراً بلا خلاف ، إذا اتخذ سبيل الله هزواً .

قال : « ولو أنَّ امرءاً اشترى مصحفاً ليضل به عن سبيل الله ، ويتخذه هزواً ، لكان كافراً ! فهذا هو الذى ذمَّ الله تعالى ، وما ذمَّ قط - عَزَّ وجَلَّ - مَن اشترى لهو الحديث ليتلهى به ويروِّح نفسه ، لا ليُضل عن سبيل الله تعالى . فبطل تعلقهم بقول هؤلاء ، وكذلك مَن اشتغل عامداً عن الصلاة بقراءة القرآن ، أو بقراءة السنن ، أو بحديث يتحدث به ، أو بغناء ، أو بغير ذلك ، فهو فاسق عاص لله تعالى ، ومَن لم يضيع شيئاً من الفرائض اشتغالاً بما ذكرنا فهو محسن »[1] .

(ب) واستدلوا بقوله تعالى فى مدح المؤمنين : ﴿ وَإِذَا

---

(١) المحلى لابن حزم : ٩/ ٦٠ - طبع المنيرية .

سَمِعُواْ اللَّغْوَ أعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [1] ، والغناء من اللّغو فوجب الإعراض عنه .

ويُجاب بأن الظاهر من الآية أن اللّغو : سفه القول من السب والشتم ونحو ذلك ، وبقية الآية تنطق بذلك . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أعْمَالُنَا وَلَكُمْ أعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ [2] ، فهى شبيهة بقوله تعالى فى وصف عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَاماً ﴾ [3] .

ولو سلّمنا أن اللّغو فى الآية يشمل الغناء لوجدنا الآية تستحب الإعراض عن سماعه وتمدحه ، وليس فيها ما يوجب ذلك .

وكلمة « اللّغو » ككلمة « الباطل » تعنى ما لا فائدة فيه ، وسماع ما لا فائدة فيه ليس محرّماً ما لم يُضيِّع حقاً ، أو يُشغل عن واجب .

روى عن ابن جريج : أنه كان يرخص فى السماع فقيل

---

(١) القصص : ٥٥ (٢) القصص : ٥٥
(٣) الفرقان : ٦٣

له : أيؤتى به يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لا فى الحسنات ولا فى السيئات ؛ لأنه شبيه باللَّغو ، قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ ﴾ [١] .

قال الإمام الغزالى : « إذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشىء على طريق القَسَم من غير عقد عليه ولا تصميم ، والمخالفة فيه - مع أنه لا فائدة فيه - لا يؤاخَذ به ، فكيف يؤاخَذ بالشعر والرقص » ؟ ! [٢] .

على أننا نقول : ليس كل غناء لغواً ؛ إنه يأخذ حكمه وفق نيَّة صاحبه ، فالنيَّة الصالحة تحيل اللّهو قُربة ، والمزح طاعة ، والنيَّة الخبيثة تحبط العمل الذى ظاهره العبادة وباطنه الرياء : « إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [٣] .

---

(١) البقرة : ٢٢٥ ، المائدة : ٨٩

(٢) إحياء علوم الدين ، كتاب « السماع » ص ١١٤٧ - طبعة دار الشعب بمصر .

(٣) رواه مسلم من حديث أبى هريرة ، كتاب « البر والصلة والآداب » ، باب : تحريم ظلم المسلم .

ونتقل هنا كلمة جيدة قالها ابن حزم فى « المُحَلَّى » رداً على الذين يمنعون الغناء قال : « احتجوا فقالوا : من الحق الغناء أم من غير الحق ؟ ولا سبيل إلى قسم ثالث ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [1] ، فجوابنا - وبالله التوفيق - : أن رسول الله ﷺ قال : « إنما الأعمال بالنيَّات وإنما لكل امرئ ما نوى » [2] ، فَمَن نوى باستماع الغناء عوناً على معصية الله فهو فاسق ، وكذلك كل شىء غير الغناء ، ومَن نوى به ترويح نفسه ، ليقوى بذلك على طاعة الله عَزَّ وجَلَّ ، وينشط نفسه بذلك على البر فهو مطيع محسن ، وفعله هذا من الحق ، ومَن لم ينو طاعة ولا معصية فهو لغو معفو عنه ، كخروج الإنسان إلى بستانه ، وقعوده على باب داره متفرجاً ، وصبغه ثوبه لازوردياً أو أخضر أو غير ذلك ، ومدّ ساقه وقبضها ، وسائر أفعاله » [3] .

---

(١) يونس : ٣٢

(٢) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ، وهو أول حديث فى صحيح البخارى .

(٣) المحلى : ٩/ ٦٠

(جـ) واستدلوا بحديث : « كل لهو يلهو به المؤمن فهو باطل إلا ثلاثة : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه عن قوسه »[1] . . والغناء خارج عن هذه الثلاثة .

وأجاب المجوِّزون بضعف الحديث ، ولو صحَّ لما كان فيه حُجَّة ، فإن قوله : « فهو باطل » لا يدل على التحريم ، بل يدل على عدم الفائدة . فقد ورد عن أبى الدرداء قوله : « إنى لأستجم نفسى بالشىء من الباطل ليكون أقوى لها على الحق » . على أن الحصر فى الثلاثة غير مراد ، فإن التلهى بالنظر إلى الحبشة وهم يرقصون فى المسجد النبوى خارج عن تلك الأُمور الثلاثة ، وقد ثبت فى الصحيح ، ولا شك أن التفرج فى البساتين وسماع أصوات الطيور ، وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل ، لا يحرم عليه شىء منها ، وإن جاز وصفه بأنه باطل .

(د) واستدلوا بالحديث الذى رواه البخارى - معلقاً -

---

(١) رواه أصحاب السنن الأربعة ، وفيه اضطراب . قاله الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث « الإحياء » .

عن أبى مالك أو أبى عامر الأشعرى - شك من الراوى - عن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « ليكونن قوم من أمتى يستحلون الحِر [1] والحرير والخمر والمعازف » . والمعازف : الملاهى ، أو آلات العزف .

والحديث وإن كان فى صحيح البخارى : إلا أنه من « المعلقات » لا من « المسندات المتصلة » ولذلك رده ابن حزم لانقطاع سنده ، ومع التعليق فقد قالوا : إن سنده ومتنه لم يسلما من الاضطراب .

وقد اجتهد الحافظ ابن حجر لوصل الحديث ، ووصله بالفعل من تسع طرق ، ولكنها جميعاً تدور على راوٍ تكلم فيه عدد من الأئمة النُقَّاد ، ألا وهو : هشام ابن عمار [2] . وهو - وإن كان خطيب دمشق ومقرئها

---

(١) الحِر : بكسر الحاء وتخفيف الراء - : أى الفَرْج ، والمعنى : يستحلون الزنى . ورواية البخارى : الخزّ .

(٢) انظر : تغليق التعليق - للحافظ ابن حجر : ٥/١٧ - ٢٢ ، تحقيق سعيد القزقى - طبع المكتب الإسلامى ودار عمار .

ومحدِّثها وعالمها ، ووثَّقه ابن معين والعجلى - فقد قال عنه أبو داود : حدَّث بأربعمائة حديث لا أصل لها .

وقال أبو حاتم : صدوق وقد تغيَّر ، فكان كل ما دُفِع إليه قرأه ، وكل ما لقنه تلقَّن . وكذلك قال ابن سيار .

وقال الإمام أحمد : طياش خفيف .

وقال النسائى : لا بأس به (وهذا ليس بتوثيق مطلق) .

ورغم دفاع الحافظ الذهبى عنه قال : صدوق مكثر له ما يُنكَر [1] .

وأنكروا عليه أنه لم يكن يحدِّث إلَّا بأجر !

ومثل هذا لا يُقبل حديثه فى مواطن النزاع ، وخصوصاً فى أمر عمَّت به البلوى .

ورغم ما فى ثبوته من الكلام ، ففى دلالته كلام آخر ؛ فكلمة « المعارف » لم يُتفق على معناها بالتحديد : ما هو ؟

---

(١) انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال (٤/ ٣٠٢) ترجمة (٩٢٣٤) ، وفى « تهذيب التهذيب » (١١/ ٥١ - ٥٤) .

فقد قيل : الملاهى ، وهذه مجملة ، وقيل : آلات العزف .

ولو سلَّمنا بأن معناها : آلات الطرب المعروفة بآلات الموسيقى . فلفظ الحديث المعلَّق فى البخارى غير صريح فى إفادة حرمة « المعازف » لأن عبارة « يستحلون » - كما ذكر ابن العربى - لها معنيان : أحدهما : يعتقدون أن ذلك حلال ، والثانى : أن تكون مجازاً عن الاسترسال فى استعمال تلك الأُمور ؛ إذ لو كان المقصود بالاستحلال : المعنى الحقيقى ، لكان كفراً ، فإن استحلال الحرام المقطوع به - مثل الخمر والزنى المعبَّر عنه بـ « الحِر » - كفر بالإجماع .

ولو سلَّمنا بدلالتها على الحرمة ، فهل يُستفاد منها تحريم المجموع المذكور من الحِر والحرير والخمر والمعازف ، أو كل فرد منها على حدة ؟ والأول هو الراجح . فإن الحديث فى الواقع ينعى على أخلاق طائفة من الناس : انغمسوا فى الترف واللَّيالى الحمراء ، وشرب الخمور . فهم بين خمر ونساء ، ولهو وغناء ، وخَزٍّ وحرير . ولذا روى ابن ماجه

هذا الحديث عن أبى مالك الأشعرى بلفظ : « ليشربنّ أُناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، يُعزَف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات ، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير » ، وكذلك رواه ابن حبان فى صحيحه ، والبخارى فى تاريخه .

وكل مَن روى الحديث من طريق غير طريق هشام ابن عمار ، جعل الوعيد على شرب الخمر ، وما المعازف إلا مكملة وتابعة .

(هـ) واستدلوا بحديث عائشة : « إن الله تعالى حرَّم القَيْنة (أى الجارية) وبيعها وثمنها ، وتعليمها » .

والجواب عن ذلك :

أولاً : أنَّ الحديث ضعيف ، وكل ما جاء فى تحريم بيع القيان ضعيف (١) .

ثانياً : قال الغزالى : « المراد بالقَيْنة الجارية التى تغنى

---

(١) انظر : تضعيف ابن حزم لهذه الأحاديث وتعليقه عليها فى « المحلى » : ٩/٥٦ - ٥٩

للرجال فى مجلس الشرب ، وغناء الأجنبية للفُسَّاق ومَن يخاف عليهم الفتنة حرام ، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محذور . فأما غناء الجارية لمالكها ، فلا يُفهم تحريمه من هذا الحديث . بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة ، بدليل ما روى فى الصحيحين من غناء الجاريتين فى بيت عائشة رضى الله تعالى عنها »[1] .. وسيأتى .

ثالثاً : كان هؤلاء القيان المغنيات يُكَوِّنّ عنصراً هاماً من نظام الرقيق ، الذى جاء الإسلام بتصفيته تدريجياً ، فلم يكن يتفق وهذه الحكمة : إقرار بقاء هذه الطبقة فى المجتمع الإسلامى ، فإذا جاء حديث بالنعى على امتلاك « القَيْنة » ، وبيعها ، والمنع منه ، فذلك لهدم ركن من بناء « نظام الرق » العتيد .

(و) واستدلوا بما روى نافع : أن ابن عمر سمع صوت زمارة راع فوضع أصبعيه فى أذنيه ، وعدل راحلته عن الطريق ، وهو يقول : يا نافع ، أتسمع ؟ فأقول :

---

(١) الإحياء ص ١١٤٨

نعم ، فيمضى ، حتى قلت : لا . فرفع يده وعدل راحلته إلى الطريق ، وقال : « رأيتُ رسول الله ﷺ يسمع زمارة راع فصنع مثل هذا »[1] .

والحديث قال عنه أبو داود : حديث منكر .

ولو صحَّ لكان حُجَّة على المحرِّمين لا لهم ، فلو كان سماع المزمار حراماً ما أباح النبى ﷺ لابن عمر سماعه ، ولو كان عند ابن عمر حراماً ما أباح لنافع سماعه ، ولأمر عليه السلام بمنع وتغيير هذا المنكر ، فإقرار النبى ﷺ لابن عمر دليل على أنه حلال .

وإنما تجنب - عليه السلام - سماعه كتجنّبه أكثر المباح من أمور الدنيا ؛ كتجنبه الأكل متكئاً ، وأن يبيت عنده دينار أو درهم .... إلخ .

(ز) واستدلوا أيضاً بما روى : « إن الغناء ينبت النفاق فى القلب » ولم يثبت هذا حديثاً عن النبى ﷺ ، وإنما ثبت قولاً لبعض الصحابة أو التابعين ، فهو رأى لغير

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

معصوم خالفه فيه غيره . فمن الناس مَن قال - وبخاصة الصوفية - : إن الغناء يرقق القلب ، ويبعث الحزن والندم على المعصية ، ويهيج الشوق إلى الله تعالى ، ولهذا اتخذوه وسيلة لتجديد نفوسهم ، وتنشيط عزائمهم ، وإثارة أشواقهم . قالوا : وهذا أمر لا يُعرف إلا بالذَوْق والتجربة والممارسة ، ومَن ذاق عرف ، وليس الخبر كالعيان !

على أن الإمام الغزالى جعل حكم هذه الكلمة بالنسبة للمغنى لا للسامع ، إذ كان غرض المغنى أن يعرض نفسه على غيره ، ويروّج صوته عليه ، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه . ومع هذا قال الغزالى : « وذلك لا يوجب تحريماً ، فإن لبس الثياب الجميلة ، وركوب الخيل المهملجة ، وسائر أنواع الزينة ، والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع وغير ذلك ، يُنبت النفاق فى القلب ، ولا يُطلق القول بتحريم ذلك كله ، فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب : المعاصى ، بل إن المباحات ، التى هى مواقع نظر الخلق ، أكثر تأثيراً »[1] .

---

(١) الإحياء: كتاب « السماع » ص ١١٥١

(ح) واستدلوا على تحريم غناء المرأة خاصة ، بما شاع عند بعض الناس من أن صوت المرأة عَوْرة ، وليس هناك دليل ولا شبه دليل من دين الله على أن صوت المرأة عَوْرة ، وقد كان النساء يسألن رسول الله ﷺ في مَلإٍ من أصحابه ، وكان الصحابة يذهبون إلى أُمهات المؤمنين ويستفتونهن ويفتينهم ويحدثنهم ، ولم يقل أحد : إن هذا من عائشة أو غيرها كشف لعورة يجب أن تُستر . مع أن نساء النبي عليهن من التغليظ ما ليس على غيرهن . وقال تعالى : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ (١) .

فإن قالوا : هذا في الحديث العادى لا في الغناء ، قلنا : روى الصحيحان أن النبي ﷺ سمع غناء الجاريتين ولم ينكر عليهما ، وقال لأبي بكر : « دعهما » ، وقد سمع ابن جعفر وغيره من الصحابة والتابعين الجوارى يغنين .

(ط) واستدلوا بحديث الترمذى عن عليّ مرفوعاً : « إذا فعلت أُمتى خمس عشرة خصلة ، حلّ بها البلاء . . . » ، وذكر منها : « واتخذت القَيْنات والمعازف » ، والحديث متفق على ضعفه ، فلا حُجَّة فيه .

---

(١) الأحزاب : ٣٢

والخلاصة .. أن النصوص التى استدل بها القائلون بالتحريم إما صحيح غير صريح ، أو صريح غير صحيح . ولم يسلم حديث واحد مرفوع إلى رسول الله ﷺ يصلح دليلاً للتحريم ، وكل أحاديثهم ضعَّفها جماعة من الظاهرية والمالكية والحنابلة والشافعية .

قال القاضى أبو بكر بن العربي فى كتاب « الأحكام » : لم يصح فى التحريم شىء .

وكذا قال الغزالى وابن النحوى فى العمدة .

وقال ابن طاهر فى كتابه فى « السماع » : لم يصح منها حرف واحد .

وقال ابن حزم : « ولا يصح فى هذا الباب شىء ، وكل ما فيه فموضوع . ووالله لو أسند جميعه ، أو واحد منه فأكثر ، من طريق الثقات إلى رسول الله ﷺ ، لما ترددنا فى الأخذ به »[1] .

* *

---

(١) انظر « المحلى » : ٩/٥٩

● أدلة المجيزين للغناء :

تلك هى أدلة المحرِّمين ، وقد سقطت واحداً بعد الآخر ، ولم يقف دليل منها على قدميه . وإذا انتفت أدلة التحريم بقى حكم الغناء على أصل الإباحة بلا شك ، ولو لم يكن معناً نص أو دليل واحد على ذلك غير سقوط أدلة التحريم . فكيف ومعنا نصوص الإسلام الصحيحة الصريحة ، وروحه السمحة ، وقواعده العامة ، ومبادئه الكلية ؟

وهاك بيانها :

أولاً – من حيث النصوص :

استدلوا بعدد من الأحاديث الصحيحة ، منها : حديث غناءَ الجاريتين فى بيت النبى ﷺ عند عائشة ، وانتهار أبى بكر لهما ، وقوله : مزمور الشيطان فى بيت النبى ﷺ ، وهذا يدل على أنهما لم تكونا صغيرتين كما زعم بعضهم ، فلو صح ذلك لم تستحقا غضب أبى بكر إلى هذا الحد .

والمعول عليه هنا هو رد النبى ﷺ على أبى بكر رضى الله عنه وتعليله : أنه يريد أن يُعلِّم اليهود أن فى ديننا فسحة ،

وأنه بُعِث بحنيفية سمحة . وهو يدل على وجوب رعاية تحسين صورة الإسلام لدى الآخرين ، وإظهار جانب اليُسر والسماحة فيه .

وقد روى البخارى وأحمد عن عائشة أنها زَفَّت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال النبى ﷺ : « يا عائشة ؛ ما كان معهم من لهو ؟ فإنّ الأنصار يعجبهم اللَّهو » .

وروى ابن ماجه عن ابن عباس قال : أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أهديتم الفتاة » ؟ قالوا : نعم . قال : « أرسلتم معها مَن يغنى » ؟ قالت : لا . فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الأنصار قوم فيهم غزل ، فلو بعثتم معها مَن يقول : أتيناكم أتيناكم . . فحيانا وحياكم » ؟!

وهذا الحديث يدل على رعاية أعراف الأقوام المختلفة ، واتجاهم المزاجى ، ولا يحكِّم المرء مزاجه هو فى حياة كل الناس .

وروى النسائى والحاكم وصحَّحه عن عامر بن سعد قال : دخلتُ على قرظة بن كعب وأبى مسعود الأنصارى فى

عرس ، وإذا جوار يغنين . فقلت : أى صاحبْى رسول الله أهلَ بدر يُفعل هذا عندكم ؟! فقالا : اجلس إن شئتَ فاستمع معنا ، وإن شئتَ فاذهب ، فإنه قد رُخِّص لنا اللَّهو عند العرس .

وروى ابن حزم بسنده عن ابن سيرين : أنّ رجلاً قدم المدينة بجوارٍ فأتى عبد الله بن جعفر فعرضهن عليه ، فأمر جارية منهن فغنَّت ، وابن عمر يسمع ، فاشتراها ابن جعفر بعد مساومة ، ثم جاء الرجل إلى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ؛ غُبِنتُ بسبعمائة درهم ! فأتى ابن عمر إلى عبد الله بن جعفر فقال له : إنه غبن بسبعمائة درهم ، فإما أن تعطيها إياه ، وإما أن ترد عليه بيعه ، فقال : بل نعطيه إياها . قال ابن حزم : « فهذا ابن عمر قد سمع الغناء وسعى فى بيع المغنية ، وهذا إسناد صحيح ، لا تلك الملفقات الموضوعة »[1] .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّواْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ، قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[2] .

---

(١) انظر المحلى : ٩/٦٣   (٢) الجمعة : ١١

فقرن اللَّهو بالتجارة - وهى حلال بيقين - ، ولم يذمهما إلا من حيث شغل الصحابة بهما - بمناسبة قدوم القافلة وضرب الدفوف فرحاً بها - عن خطبة النبى ﷺ ، وتركه قائماً .

واستدلوا بما جاء عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم : أنهم باشروا السماع بالفعل أو أقروه . وهم القوم يُقتدَى بهم فيُهتدَى .

واستدلوا بما نقله غير واحد من الإجماع على إباحة السماع ، كما سنذكره بعد .

*

وثانياً - من حيث روح الإسلام وقواعده :

(أ) لا شىء فى الغناء إلا أنه من طيبات الدنيا التى تستلذها الأنفس ، وتستطيبها العقول ، وتستحسنها الفطَر ، وتشتهيها الأسماع ، فهو لذَّة الأُذن ، كما أن الطعام الهنئ لذَّة المعدة . والمنظر الجميل لذَّة العين ، والرائحة الذكية لذَّة الشم .... إلخ ، فهل الطيبات - أى المستلذَّات - حرام فى الإسلام أم حلال ؟

من المعروف أنَّ الله تعالى كان قد حرَّم على بنى إسرائيل بعض طيبات الدنيا عقوبة لهم على سوء ما صنعوا ، كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (١) ، فلما بعث الله محمداً ﷺ جعل عنوان رسالته فى كتب الأوَّلين أنه : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

فلم يبق فى الإسلام شىء طيب - أى تستطيبه الأنفس والعقول السليمة - إلا أحلَّه الله ، رحمة بهذه الأُمة لعموم رسالتها وخلودها . قال تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ (٣) .

---

(١) النساء : ١٦٠ - ١٦١ (٢) الأعراف : ١٥٧

(٣) المائدة : ٤

ولم يبح الله لواحد من الناس أن يَحرِّم على نفسه أو على غيره شيئاً من الطيبات مما رزق الله ، مهما يكن صلاح نيَّته أو ابتغاء وجه الله فيه ، فإن التحليل والتحريم من حق الله وحده ، وليس من شأن عباده ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ ءَآللهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (١) ، وجعل سبحانه تحريم ما أحلَّه من الطيبات كإحلال ما حرَّم من المنكرات ، كلاهما يجلب سخط الله وعذابه ، ويردى صاحبه فى هاوية الخسران المبين ، والضلال البعيد ، قال جلَّ شأنه ينعى على مَن فعل ذلك من أهل الجاهلية : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ ، قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (٢) .

(ب) ولو تأملنا لوجدنا حب الغناء والطرب للصوت الحسن يكاد يكون غريزة إنسانية وفطرة بَشرية ، حتى إننا

---

(١) يونس : ٥٩ (٢) الأنعام : ١٤٠

لنشاهد الصبى الرضيع فى مهده يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه . ولذا تعودت الأُمهات والمرضعات والمربيات الغناء للأطفال منذ زمن قديم . بل نقول : إن الطيور والبهائم تتأثر بحسن الصوت والنغمات الموزونة حتى قال الغزالى فى « الإحياء » :

« مَن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الجِمال والطيور وجميع البهائم ، إذ الجمل - مع بلادة طبعه - يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة ، ويستقصر - لقوة نشاطه فى سماعه - المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه . فترى الإبل إذا سمعت الحادى تمد أعناقها ، وتصغى إليه ناصبة آذانها ، وتسرع فى سيرها ، حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها » .

وإذا كان حب الغناء غريزة وفطرة فهل جاء الدين لمحاربة الغرائز والفطر والتنكيل بها ؟ كلا ، إنما جاء لتهذيبها والسمو بها ، وتوجيهها التوجيه القويم . قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : إن الأنبياء قد بُعِثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها .

ومصداق ذلك أنَّ رسول الله ﷺ قدم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : « ما هذان اليومان » ؟ قالوا : كنا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال عليه السلام : « إنَّ الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما : يوم الأضحى ويوم الفطر » (١) .

وقالت عائشة : « لقد رأيتُ النبى يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد ، حتى أكون أنا التى أسأمه - أى اللَّعب - فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللَّهو » .

وإذا كان الغناء لهواً ولعباً فليس اللَّهو واللَّعب حراماً ، فالإنسان لا صبر له على الجد المطلق والصرامة الدائمة .

قال النبى ﷺ لحنظلة - حين ظن نفسه قد نافق لمداعبته زوجه وولده ، وتغيُّرِ حاله فى بيته عن حاله مع رسول الله ﷺ : « يا حنظلة ؛ ساعة وساعة » (٢) .

وقال علىّ بن أبى طالب : روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا أُكرهت عميت .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى . (٢) رواه مسلم .

وقال كرَّم الله وجهه : إن القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة .

وقال أبو الدرداء : إنى لأستجم نفسى بالشىء من اللَّهو ليكون أقوى لها على الحق .

وقد أجاب الإمام الغزالى عمن قال : إن الغناء لهو ولعب بقوله : « هو كذلك ، ولكن الدنيا كلها لهو ولعب .. وجميع المداعبة مع النساء لهو ، إلا الحراثة التى هى سبب وجود الولد ، كذلك المزح الذى لا فُحش فيه حلال ، نُقِل ذلك عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة .

وأى لهو يزيد على لهو الحبشة والزنوج فى لعبهم ، فقد ثبت بالنص إباحته . على أنى أقول : اللَّهو مروِّح القلب ، ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أُكرهت عميت ، وترويحها إعانة لها على الجد ، فالمواظب على التفقه مثلاً ينبغى أن يتعطل يوم الجمعة ؛ لأن عطلة يوم تساعد على النشاط فى سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات فى سائر الأوقات ينبغى أن يتعطل فى بعض الأوقات ، ولأجله كُرِهت الصلاة فى بعض الأوقات ،

فالعطلة معونة على العمل ، واللّهو معين على الجد ، ولا يصبر على الجد المحض ، والحق المر ، إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام .

فاللّهو دواء القلب من داء الإعياء والملال ، فينبغى أن يكون مباحاً ، ولكن لا ينبغى أن يُستكثر منه ، كما لا يُستكثر من الدواء ، فإذَنَ اللّهو على هذه النية يصير قُربة ، هذا فى حق مَن لا يحرك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها ، بل ليس له إلا اللّذة والاستراحة المحضة ، فينبغى أن يُستحب له ذلك ، ليتوصل به إلى المقصود الذى ذكرناه . نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال ، فإن الكامل هو الذى لا يحتاج أن يُروِّح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين ، ومَن أحاط بعلم علاج القلوب ، ووجوه التلطف بها ، وسياقتها إلى الحق ، علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذا الأمور دواء نافع لا غِنىً عنه » (١) . . انتهى كلام الغزالى ، وهو كلام نفيس يُعبر عن روح الإسلام الحق .

* *

---

(١) الإحياء ص ١١٥٢ ، ١١٥٣

● القائلون بإجازة الغناء :

تلك هى الأدلة المبيحة للغناء من نصوص الإسلام وقواعده ، فيها الكفاية كل الكفاية ولو لم يقل بموجبها قائل ، ولم يذهب إلى ذلك فقيه ، فكيف وقد قال بموجبها الكثيرون من صحابة وتابعين وأتباع وفقهاء ؟

وحسبنا أن أهل المدينة - على ورعهم - والظاهرية - على حرفيتهم وتمسكهم بظواهر النصوص - والصوفية - على تشددهم وأخذهم بالعزائم دون الرخص - روى عنهم إباحة الغناء .

قال الإمام الشوكانى فى « نيل الأوطار » : « ذهب أهل المدينة ومَن وافقهم من علماء الظاهر ، وجماعة الصوفية ، إلى الترخيص فى الغناء ، ولو مع العود والبراع .

وحكى الأستاذ أبو منصور البغدادى الشافعى فى مؤلفه فى السماع : أن عبد الله بن جعفر كان لا يرى بالغناء بأساً ، ويصوغ الألحان لجواريه ، ويسمعها منهن على أوتاره . وكان ذلك فى زمن أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه .

وحكى الأستاذ المذكور مثل ذلك أيضاً عن القاضى شريح ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء بن أبى رباح ، والزهرى ، والشعبى .

وقال إمام الحرمين فى النهاية ، وابن أبى الدنيا : نقل الأثبات من المؤرخين : أن عبد الله بن الزبير كان له جوار عوّادات ، وأن ابن عمر دخل عليه وإلى جنبه عود ، فقال : ما هذا يا صاحب رسول الله ؟! فناوله إياه ، فتأمله ابن عمر فقال : هذا ميزان شامى ؟ قال ابن الزبير : يوزن به العقول !

وروى الحافظ أبو محمد بن حزم فى رسالته فى السماع بسنده إلى ابن سيرين قال : « إن رجلاً قدم المدينة بجوارٍ فنزل على ابن عمر ، وفيهن جارية تضرب . فجاء رجل فساومه ، فلم يهو فيهن شيئاً ، قال : انطلق إلى رجلٍ هو أمثل لك بيعاً من هذا . قال : مَن هو ؟ قال : عبد الله ابن جعفر . . فعرضهن عليه ، فأمر جارية منهن ، فقال لها : خذى العود ، فأخذته ، فغنت ، فبايعه ثم جاء إلى ابن عمر . . . إلى آخر القصة .

وروى صاحب « العقد » العلامة الأديب أبو عمر الأندلسى : أن عبد الله بن عمر دخل على ابن جعفر فوجد عنده جارية فى حجرها عود ، ثم قال لابن عمر : هل ترى بذلك بأساً ؟ قال : لا بأس بهذا .

وحكى الماوردى عن معاوية وعمرو بن العاص : أنهما سمعا العود عند ابن جعفر .

وروى أبو الفرج الأصبهانى : أن حسَّان بن ثابت سمع من عزة الميلاء الغناء بالمزهر بشِعر من شِعره .

وذكر أبو العباس المبرّد نحو ذلك . والمزهر عند أهل اللُّغة : العود .

وذكر الأدفوى : أن عمر بن عبد العزيز كان يسمع جواريه قبل الخلافة . ونقل ابن السمعانى الترخيص عن طاوس ، ونقله ابن قتيبة وصاحب « الإمتاع » عن قاضى المدينة سعد بن إبراهيم ابن عبد الرحمن الزهرى من التابعين . ونقله أبو يعلى الخليلى فى « الإرشاد » عن عبد العزيز بن سلمة الماجشون مفتى المدينة .

وحكى الرويانى عن القفَّال : أن مذهب مالك بن أنس

إباحة الغناء بالمعازف ، وحكى الأستاذ أبو منصور الفورانى عن مالك جواز العود ، وذكر أبو طالب المكى فى « قوت القلوب » عن شعبة : أنه سمع طنبوراً فى بيت المنهال بن عمرو المحدِّث المشهور .

وحكى أبو الفضل بن طاهر فى مؤلفه فى « السماع » : أنه لا خلاف بين أهل المدينة فى إباحة العود .

قال ابن النحوى فى « العمدة » : وقال ابن طاهر : هو إجماع أهل المدينة . قال ابن طاهر : وإليه ذهبت الظاهرية قاطبة . قال الأدفوى : لم يختلف النقلة فى نسبة الضرب إلى إبراهيم بن سعد المتقدم الذكر ، وهو ممن أخرج له الجماعة كلهم (يعنى بالجماعة : أصحاب الكتب الستة ، من الصحيحين والسنن) .

وحكى الماوردى إباحة العود عن بعض الشافعية ، وحكاه أبو الفضل بن طاهر عن ابن إسحاق الشيرازى ، وحكاه الأسنوى فى « المهمات » عن الرويانى والماوردى ، ورواه ابن النحوى عن الأستاذ أبى منصور ، وحكاه ابن الملقّن فى « العمدة » عن ابن طاهر ، وحكاه الأدفوى عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وحكاه صاحب

« الإمتاع » عن أبى بكر بن العربى ، وجزم بالإباحة الأدفوى .

هؤلاء جميعاً قالوا بتحليل السماع ، مع آلة من الآلات المعروفة - أى آلات الموسيقى .

وأما مجرد الغناء من غير آلة ، فقال الأدفوى فى « الإمتاع » : إن الغزالى فى بعض تآليفه الفقهية نقل الاتفاق على حِلّه ، ونقل ابن طاهر إجماع الصحابة والتابعين عليه ، ونقل التاج الفزارى وابن قتيبة إجماع أهل الحرمين عليه ، ونقل ابن طاهر وابن قتيبة أيضاً إجماع أهل المدينة عليه ، وقال الماوردى : لم يزل أهل الحجاز يرخصون فيه فى أفضل أيام السنة المأمور فيها بالعبادة والذكر .

قال ابن النحوى فى « العمدة » : وقد روى الغناء وسماعه عن جماعة من الصحابة والتابعين ، فمن الصحابة عمر - كما رواه ابن عبد البر وغيره ، وعثمان - كما نقله الماوردى وصاحب البيان والرافعى ، وعبد الرحمن ابن عوف - كما رواه ابن أبى شيبة ، وأبو عبيدة بن الجراح - كما أخرجه البيهقى ، وسعد بن أبى وقاص - كما أخرجه

ابن قتيبة ، وأبو مسعود الأنصارى - كما أخرجه البيهقى ، وبلال ، وعبد الله بن الأرقم ، وأُسامة بن زيد - كما أخرجه البيهقى أيضاً ، وحمزة - كما فى الصحيح ، وابن عمر - كما أخرجه ابن طاهر ، والبراء بن مالك - كما أخرجه أبو نعيم ، وعبد الله بن جعفر - كما رواه ابن عبد البر ، وعبد الله بن الزبير - كما نقل أبو طالب المكى ، وحسَّان - كما رواه أبو الفرج الأصبهانى ، وعبد الله بن عمرو - كما رواه الزبير بن بكار ، وقرظة بن كعب - كما رواه ابن قتيبة ، وخوات بن جبير ، ورباح بن المعترف - كما أخرجه صاحب الأغانى ، والمغيرة بن شعبة - كما حكاه أبو طالب المكى ، وعمرو بن العاص - كما حكاه الماوردى ، وعائشة والرُّبيّع - كما فى صحيح البخارى وغيره .

وأما التابعون فسعيد بن المسيب ، وسالم بن عبد الله ابن عمر ، وابن حسَّان ، وخارجة بن زيد ، وشريح القاضى ، وسعيد بن جبير ، وعامر الشعبى ، وعبد الله ابن أبى عتيق ، وعطاء بن أبى رباح ، ومحمد بن شهاب

الزهرى ، وعمر بن عبد العزيز ، وسعد بن إبراهيم الزهرى .

وأما تابعوهـم ، فخلق لا يُحصون ، منهم : الأئمة الأربعة ، وابن عيينة ، وجمهور الشافعية » . انتهى كلام ابن النحوى . هذا كله ذكره الشوكانى فى « نيل الأوطار » [(١)] .

* *

● قيود وشروط لا بد من مراعاتها :

ولا ننسى أن نضيف إلى هذا الحكم : قيوداً لا بد من مراعاتها فى سماع الغناء :

١ - نؤكد ما أشرنا إليه أنه ليس كل غناء مباحاً ، فلا بد أن يكون موضوعه متفقاً مع أدب الإسلام وتعاليمه .

فلا يجوز التغنى بقول أبى نواس :

دع عنك لومى ، فإنَّ اللَّوم إغراء

وداونى بالتى كانت هى الداء !

---

(١) نيل الأوطار : ٨/ ٢٦٤ - ٢٦٦ - طبع دار الجيل - بيروت .

ولا بقول شوقى :

رمضان ولّى هاتها يا ساقى   مشتاقة تسعى إلى مشتاق

وأخطر منها : قول إيليا أبى ماضى فى قصيدته « الطلاسم » :

جـــئتُ لا أعلم من أين ، ولكنى أتيتُ !

ولقد أبصرتُ قُدَّامى طـــريقاً فمشيتُ !

كيف جئتُ ؟ كيف أبصرتُ طريقى ؟ لست أدرى !

لأنها تشكيك فى أُصول الإيمان : المبدأ ، والمعاد ، والنبوة .

ومثلها : ما عبر عنه بالعامية فى أغنية « من غير ليه » وليست أكثر من ترجمة شك أبى ماضى إلى العامية ، ليصبح تأثيرها أوسع دائرة .

ومثل ذلك الأغنية التى تقول : « الدنيا سيجارة وكاس » . فكل هذه مخالفة لتعاليم الإسلام الذى يجعل الخمر رجساً من عمل الشيطان ، ويلعن شارب « الكاس » وعاصرها وبائعها وحاملها وكل مَن أعان فيها بعمل . والتدخين أيضاً آفة ليس وراءها إلا ضرر الجسم والنفس والمال .

والأغانى التى تمدح الظَلَمة والطغاة والفَسَقة من الحُكَّام الذين ابتليت بهم أُمتنا ، مخالفة لتعاليم الإسلام ، الذى يلعن الظالمين ، وكل مَن يعينهم ، بل مَن يسكت عليهم ، فكيف بمن يمجدهم ؟!

والأغنية التى تمجد صاحب العيون الجريئة - أو صاحبة العيون الجريئة - أغنية تخالف أدب الإسلام الذى ينادى كتابه : ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ .... ﴾ (١) ، ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ (٢) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « يا علىّ ؛ لا تتبع النظرة النظرة ، فإنَّ لك الأُولى وليست لك الآخرة » .

٢ - ثم إن طريقة الأداء لها أهميتها ، فقد يكون الموضوع لا بأس به ولا غبار عليه ، ولكنْ طريقة المغنِّى أو المغنية فى أدائه بالتكسر فى القول ، وتعمد الإثارة ، والقصد إلى إيقاظ الغرائز الهاجعة ، وإغراء القلوب المريضة - ينقل الأغنية من دائرة الإباحة إلى دائرة

---

(١) النور : ٣٠ (٢) النور : ٣١

الحُرْمة أو الشبهة أو الكراهة من مثل ما يُذَاع على الناس ويطلبه المستمعون والمستمعات من الأغانى التى تلح على جانب واحد ، هو جانب الغريزة الجنسية وما يتصل بها من الحب والغرام ، وإشعالها بكل أساليب الإثارة والتهييج ، وخصوصاً لدى الشباب والشابَّات .

إن القرآن يخاطِب نساء النبى فيقول : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [1] . فكيف إذا كان مع الخضوع فى القول الوزن والنغم والتطريب والتأثير .

٣ - ومن ناحية ثالثة يجب ألا يقترن الغناء بشىء محرَّم ، كشرب الخمر أو التبرج أو الاختلاط الماجن بين الرجال والنساء ، بلا قيود ولا حدود ، وهذا هو المألوف فى مجالس الغناء والطرب من قديم . وهى الصورة الماثلة فى الأذهان عندما يُذكر الغناء ، وبخاصة غناء الجوارى والنساء .

وهذا ما يدل عليه الحديث الذى رواه ابن ماجه وغيره : « ليشربنَّ ناس من أُمتى الخمر ، يسمونها بغير اسمها

---

(١) الأحزاب : ٣٢

يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات ، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير » .

وأود أن أنبه هنا على قضية مهمة ، وهى : أن الاستماع إلى الغناء فى الأزمنة الماضية كان يقتضى حضور مجلس الغناء ، ومخالطة المغنين والمغنيات وحواشيهم ، وقلَّما كانت تسلم هذه المجالس من أشياء ينكرها الشرع ، ويكرهها الدين .

أما اليوم فيستطيع المرء أن يستمع إلى الأغانى وهو بعيد عن أهلها ومجالسها ، وهذا لا ريب عنصر مخفف فى القضية ، ويميل بها إلى جانب الإذن والتيسير .

٤ - الغناء - ككل المباحات - يجب أن يُقيَّد بعدم الإسراف فيه ، وبخاصة الغناء العاطفى ، الذى يتحدث عن الحب والشوق ، فالإنسان ليس عاطفة فحسب ، والعاطفة ليست حباً فقط ، والحب لا يختص بالمرأة وحدها ، والمرأة ليست جسداً وشهوة لا غير ، لهذا يجب أن نقلل من هذا السيل الغامر من الأغانى العاطفية الغرامية ، وأن يكون لدينا من أغانينا وبرامجنا وحياتنا كلها توزيع

عادل ، وموازنة مقسطة بين الدين والدنيا ، وفى الدنيا بين حق الفرد وحقوق المجتمع ، وفى الفرد بين عقله وعاطفته ، وفى مجال العاطفة بين العواطف الإنسانية كلها من حب وكره وغيرة وحماسة وأُبوة وأُمومة وبنوةً وإخوةً وصداقة .... إلخ ، فلكل عاطفة حقها .

أما الغلو والإسراف والمبالغة فى إبراز عاطفة خاصة ، فذلك على حساب العواطف الأخرى ، وعلى حساب عقل الفرد وروحه وإرادته ، وعلى حساب المجتمع وخصائصه ومقوِّماته ، وعلى حساب الدين ومُثُله وتوجيهاته .

إنَّ الدين حرَّم الغلو والإسراف فى كل شىء حتى فى العبادة ، فما بالك بالإسراف فى اللَّهو ، وشغل الوقت به ولو كان مباحاً ؟!

إنَّ هذا دليل على فراغ العقل والقلب من الواجبات الكبيرة ، والأهداف العظيمة ، ودليل على إهدار حقوق كثيرة كان يجب أن تأخذ حظها من وقت الإنسان المحدود وعمره القصير ، وما أصدق وأعمق ما قال ابن المقفع :

« ما رأيت إسرافاً إلا وبجانبه حق مضيع » ، وفى الحديث :
« لا يكون العاقل ظاعناً إلا لثلاث : مرمة لمعاش ، أو تزود لمعاد ، أو لذَّة فى غير محرَّم » ، فلنقسمْ أوقاتنا بين هذه الثلاثة بالقسط ، ولنعلم أن الله سائل كل إنسان عن عمره : فيم أفناه ، وعن شبابه : فيم أبلاه ؟

٥ - وبعد هذا الإيضاح تبقى هناك أشياء يكون كل مستمع فيها فقيه نفسه ومفتيها ، فإذا كان الغناء أو نوع خاص منه يستثير غريزته ، ويغريه بالفتنة ، ويسبح به فى شطحات الخيال ، ويطغى فيه الجانب الحيوانى على الجانب الروحانى ، فعليه أن يتجنبه حينئذ ، ويسد الباب الذى تهب منه رياح الفتنة على قلبه ودينه وخُلُقه ، فيستريح ويريح .

* *

• الغناء والطرب فى واقع المسلمين :

ومَن نظر فى أحوال المسلمين ، وتأمل فى واقعهم المعيش ، لم يجد خصومة بين المسلم المتدين وبين الاستمتاع بطيب السماع .

إنَّ أُذن المسلم العادى موصولة بـ « طيبات السماع » تلتذ بها ، وتتغذى عليها كل يوم .

من خلال القرآن الكريم الذى تسمعه مرتَّلاً ومجوَّداً ومزيَّناً بأحسن الأصوات ، من أحسن القُرَّاء .

ومن خلال الأذان ، الذى تطرب لسماعه كل يوم خمس مرات بالصوت الجميل . وهو ميراث من عهد النبوة ، فقد قال النبى ﷺ للصحابى الذى كشف له عن ألفاظ الأذان فى رؤيا صادقة : « علِّمه بلالاً ، فإنه أندى منك صوتاً » .

ومن خلال الابتهالات الدينية ، التى تُنشَد بأعذب الألحان ، وأرق الأصوات ، فتطرب لها الأفئدة ، وتهتز لها المشاعر :

ومن خلال المدائح النبوية التى توارثها المسلمون منذ سمعوا ذلك النشيد الحلو من بنات الأنصار ، ترحيباً بمقدم الرسول الكريم :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

وأذكر أنى منذ نحو عشرين سنة سمعتُ هذا النشيد من تلميذات مدرسة إسلامية فى إندونيسيا ، يغنينه بلحن جَماعى مؤثر رقيق ، وكنا وفداً من دولة قَطَر . فرقّت له قلوبنا ، وسالت أدمعنا على خدودنا من فرط الرقة والتأثر .

وفى الأعصر الماضية استطاع المسلمون أن ينشئوا لأنفسهم ألواناً من « طيبات السماع » يُروِّحون بها أنفسهم ، ويُجمِّلون بها حياتهم ، وخصوصاً فى القرى والريف . وقد أدركنا ذلك فى عهد الصبا ومطالع الشباب . وكلها ألوان فِطرية نابعة من البيئة ، معبِّرة عن قيمها ، ولا غبار عليها .

من ذلك : فن المواويل : يتغنَّى بها الناس فى أنفسهم ، أو يجتمعون على سماعها ، ممن كان حسن الصوت منهم ، وأكثرهم يتحدث عن الحب والهيام والوصل والهجران ، وبعضها يتحدث عن الدنيا ومتاعها ، ويشكو من ظلم الناس والأيام .... إلخ .

وأكثرهم كان يتغنَّى بها بغير آلة ، وبعضهم مع

« الأرغول » ، ومن هؤلاء الفنانين الفِطريين : مَن كان يؤلِّف « الموَّال » ويلحنه ويغنيه فى وقت واحد .

ومنها : القصص المنظومة ، التى تتغنَّى ببطولات بعض الأبطال الشعبيين ، أبطال الكفاح ، أو أبطال الصبر ، يسمعها الناس ، فيطربون بها ، ويرددونها ، ويكادون يحفظونها عن ظهر قلب ، مثل قصة « أدهم الشرقاوى » ، و« شفيقة ومتولى » ، و« أيوب المصرى » ، و« سعد اليتيم » ، وغيرها .

ومنها : الملاحم الشعبية للأبطال المعروفين ، مثل « أبى زيد الهلالى » ، والتى كان يجتمع لها الناس ، ليسمعوا القصة ، ويستمعوا معها إلى أشعار أبطالها على نغمات « الربابة » من « الشاعر الشعبى » الذى تخصص فى هذا اللَّون ، وكانت هذه الملاحم لها عُشَّاقها وتقوم مقام « المسلسلات » فى هذا العصر .

ومنها : أغانى الأعياد والأفراح والمناسبات السارة ، مثل : العرس ، وولادة المولود ، وختان الصبى ، وقدوم الغائب ، وشفاء المريض ، وعودة الحاج .... ونحوها .

وقد ابتكر الناس أغانى وأهازيج لحَّنوها ، وغنوها بأنفسهم فى أحوال ومناسبات مختلفة ، مثل جنى الثمار أو القطن وغيرها .

ومثل : أهازيج العُمَّال والفَعَلة ، الذين يعملون فى البناء وحمل الأثقال ونحوها ، مثل : « هيلا ، هيلا .. صلِّ على النبى » .. وهذا له أصل شرعى من عمل الصحابة ، وهم يبنون المسجد النبوى ، ويحملون أحجاره على مناكبهم . وهم ينشدون :

اللَّهُمَّ إنَّ العيش عيش الآخرة

فاغفر للأنصـــار والمهاجـرة

حتى الأمهات ، حين يهدهدن أطفالهن ، ويهيئنهم للنوم ، يستخدمن الغناء ، ولهن كلمات مشهورة ، مثل : « يا رب ينام ، يا رب ينام .... » .

ولا زلتُ أذكر « المسحَّراتية » فى شهر رمضان المبارك ، وهم يوقظون الناس بعد منتصف اللَّيل بمنظومات يلذ سماعها منغَّمة مع دقَّات طبولهم .

ومن جميل ما يُذكر هنا : ما اخترعه الباعة فى الأسواق ، والباعة المتجولون : من النداء على سلعهم بعبارات منظومة موزونة ، يتنافسون فى التغنِّى بها ، مثل بائع العرقسوس ، وباعة الفواكه والخضروات ، وغيرهم .

وهكذا نجد هذا الفن - فن الغناء - يتخلل الحياة كلها ، دينية ودنيوية ، ويتجاوب الناس معه بتلقائية وفطرية ، ولا يجدون فى تعاليم دينهِم ما يعوقهم عن ذلك . ولم ير علماؤهم فى هذه الألوان الشعبية ما يجب أن يُنكر . بل أكثر من ذلك نجدها جميعاً ممزوجة بالدين ومعانى الإيمان والقيم الروحية والمُثُل الأخلاقية ، امتزاج الجسم بالروح : من التوحيد ، وذكر الله ، والدعاء ، والصلاة على النبى ﷺ ... وما شابهها (١) .

وهذا الذى لاحظته فى مصر ، وجدتُ مثله فى بلاد الشام ، وفى بلاد المغرب ، وغيرها من بلاد العرب .

* *

---

(١) لا أجد من الألحان والأغانى الشعبية ما ينكره الدين ، إلا ما كانت تصنعه النائحة المستأجرة مما يهيج الأحزان ، ويثير الجزع ، ويحرم المصاب من الصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء .

● لمَ شدَّد المتأخرون فى أمر الغناء ؟

يلاَحَظ أن المتأخرين من أهل الفقه أكثر تشديداً فى منع الغناء - وخصوصاً مع الآلات - من الفقهاء المتقدمين . وذلك لأسباب :

* الأخذ بالأحوط لا الأيسر :

١ - إن المتقدمين كانوا أكثر أخذاً بالأيسر ، والمتأخرين أكثر أخذاً بالأحوط ، والأحوط يعنى : الأثقل والأشد . ومَن تتبع الخط البيانى للفقه والفتوى منذ عهد الصحابة فمَن بعدهم يجد ذلك واضحاً ، والأمثلة عليه لا تُحصر .

* الاغترار بالأحاديث الضعيفة والموضوعة :

٢ - إن كثيراً من الفقهاء المتأخرين أرهبهم سيل الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، التى امتلأت بها الكتب ، ولم يكونوا من أهل تمحيص الروايات ، وتحقيق الأسانيد ، فراجت لديهم هذه الأحاديث ، ولا سيما مع شيوع القول بأن تعدد الطرق الضعيفة يقوى بعضها بعضاً .

* ضغط الواقع الغنائى :

٣ - ضغط الواقع الغنائى بما يلابسه من انحراف وتجاوز ، كان له أثره فى ترجيح المنع والتحريم . وهذا

الواقع له صورتان أثَّرت كل واحدة منهما على جماعة من الفقهاء .

*

● غناء المجون والخلاعة :

الصورة الأولى : صورة « الغناء الماجن » الذى غدا جزءاً لا يتجزأ من حياة الطبقة المترفة ، التى غرقت فى الملذَّات ، وأضاعت الصلوات ، واتبعت الشهوات ، واختلط فيها الغناء بملابسة الفجور ، وشرب الخمور ، وقول الزور ، وتلاعب الجوارى الحسان المغنيات (القيان) بعقول الحضور ، كما شاع ذلك فى حقب معروفة فى العصر العباسى .

وكان سماع الغناء يقتضى شهود هذه المجالس بما فيها من خلاعة ومجانة وفسوق عن أمر الله .

ومن المؤسف أن البيئة الفنية - كما يسمونها اليوم - لا زالت مشربة بهذه الروح ، ملوثة بهذا الوباء . وهذا ما يضطر كل عائد أو عائدة إلى الله ، من الفنانين والفنَّانات -

الذين أكرمهم الله بالهداية والتوبة - أن ينسحب من ذلك الوَسَط ، ويفر بدينه بعيداً عنه .

*

● غناء الصوفية :

والصورة الثانية : صورة « الغناء الدينى » الذى اتخذه الصوفية وسيلة لإثارة الأشواق ، وتحريك القلوب فى السير إلى الله ، مثلما يفعل الحداة مع الإبل ، فينشطونها ويستحثون خطاها ، حين تسمع نغم الحداء الموزون بصوت جميل ، فتستخف الحمل الثقيل ، وتستقصر الطريق الطويل ، وهم يعتبرون ذلك السماع عبادة وقُربة إلى الله ، أو - على الأقل - عوناً على العبادة والقُربة .

وهذا ما أنكره عليهم أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه الإمام ابن القيم ، اللّذين شنّا على الغناء هجوماً عنيفاً حاداً ، وخصوصاً ابن القيم فى « إغاثة اللّهفان » الذى شحذ كل أسلحته ، وأجلب بخيله ورجله لتحريم الغناء ، واضح - على غير عادته - بغير الصحيح ، وغير الصريح ، إذ كان نصب عينيه ذاك النوع من الغناء ، وقد

رأى فيه هو وشيخه أنه تقرب إلى الله بما لم يشرعه ، وإحداث أمر فى الدين لم يكن على عهد النبوة ، ولا عهد الصحابة ، وربما لابسه بعض البدع ، ولا سيما إذا وقع فى المساجد . أنشد ابن القيم مشنِّعاً عليهم :

تُلِىَ الكتاب فأطرقوا لا خيفـةً لكنه إطراق لاهٍ ساهى !

وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا واللهِ ما رقصوا لأجل اللهِ!

دُفٌ ومزمار ، ونغمة شـادن فمتى رأيت عبادة بملاهى ؟

وفى بعض فتاوى ابن تيمية ما يجيز الغناء إذا كان لرفع الحَرَج والترويح .

* *

• فقه الإمام الغزالى فى القضية :

وأعتقد أن مواقف الإمام الغزالى من قضية الغناء ، ومناقشته الفقهية العميقة لحجج القائلين بتحريم السماع ، والجواب عنها بالإجابات الشافية ، ونصرته لأدلة المجيزين ، وتحديده للعوارض التى تعرض للسماع المباح ، فتنقله إلى دائرة الحُرْمة . . يُعتبر من أعدل المواقف المعبرة عن وَسَطية

الشريعة ، وسماحتها ، وصلاحيتها لكل البيئات والأعصار .

والحق أن فقه الغزالى فى « الإحياء » - بصفة عامة - فقه تحرر من قيود المذهبية ، فهو لم يعد شافعياً مقيداً ، بل مجتهداً طليقاً ، ينظر إلى الشريعة من أفق واسع . وقد تجلى هذا فى مواضع كثيرة ، تحتاج إلى دراسة خاصة ، تصلح لأطروحة جامعية .

* *

• العوارض التى تنقل السماع المباح إلى الحُرْمة :

ذكر الغزالى عوارض خمسة تجعل السماع المباح محظوراً ، تتحدد فيما يلى :

١ - عارض فى المسمع بأن يكون امرأة لا يحل النظر إليها ، وتُخشَى الفتنة من سماعها . والحُرْمة فيه لخوف الفتنة لا لذات الغناء .

ورجح الغزالى قصر التحريم على مظنة خوف الفتنة . . وأيّد ذلك بحديث الجاريتين المغنيتين فى بيت عائشة ، إذ

يُعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ، ولم يحترز منه . ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه ، فلذلك لم يحترز . فإذن يختلف هذا بأحوال المرأة ، وأحوال الرجل فى كونه شاباً وشيخاً ، ولا يبعد أن يختلف الأمر فى مثل هذا بالأحوال ، فإنّا نقول : للشيخ أن يُقَبِّل زوجته ، وهو صائم ، وليس للشاب ذلك .

٢ – عارض فى الآلة بأن تكون من شعار أهل الشرب أو المخنثين ، وهى : المزامير والأوتار وطبل الكوبة . فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة ، وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة ، كالدف ، وإن كان فيه الجلاجل ، وكالطبل ، والشاهين ، والضرب بالقضيب . . . وسائر الآلات .

٣ – عارض فى نظم الصوت ، وهو الشِعر ، فإن كان فيه شيء من الخنا والفُحش والهجو ، أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله ، أو على الصحابة . كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم ، فسماع ذلك حرام ، بألحان وغير ألحان ، والمستمع شريك للقائل . وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين

يدى الرجال .. فأما التشبيب بوصف الخدود والقد والقامة .. وسائر أوصاف النساء ، فالصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده ، بلحن وبغير لحن ، وعلى المستمع ألا ينزله على امرأة معينة ، فإن نزله فلينزله على مَن تحل له ، فإن نزله على أجنبية ، فهو العاصى بالتنزيل ، وإجالة الفكر فيه . ومَن هذا وصفه ، فينبغي أن يجتنب السماع رأساً ..

٤ - عارض فى المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ، وكان فى غرة الشباب ، وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسماع حرام عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معيَّن أم لم يغلب ، فإنه كيفما كان ، فلا يسمع وصف الصدغ والخد ، والفراق والوصال ، إلا ويحرك ذلك شهوته ، وينزله على صورة معينة ، ينفخ الشيطان بها فى قلبه ، فتشتعل نار الشهوة ، وتمتد بواعث الشر ..

٥ - أن يكون الشخص من عوام الخلق ، ولم يغلب عليه حب الله تعالى ، فيكون السماع له محبوباً ، ولا غلبت عليه شهوة ، فيكون فى حقه محظوراً ، ولكنه

أبيح فى حقه كسائر أنواع اللذَّات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيراه ، وقصر عليه أكثر أوقاته ، فهذا هو السفيه الذى تُرَد شهادته ، فإن المواظبة على اللَّهو جناية ، وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة ، فكذلك بعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة ... ومن هذا القبيل : اللَّعب بالشطرنج ، فإنه مباح ، ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهية شديدة .. وما كل مباح يُباح كثيره . بل الخبز مباح ، والاستكثار منه حرام ، كسائر المباحات [(1)] اهـ .

ويلاحظ فى هذه العوارض التى ذكرها الغزالى : أنه اعتبر الأوتار والمزامير من عوارض التحريم ، بناء على أن الشرع ورد بالمنع منها .

وقد اجتهد فى تعليل هذا المنع ، فأبدع وأجاد فى التعليل والتفسير ، إذ قال : إن الشرع لم يمنع منها للذَّاتها : إذ لو كان للذَّة لقيس عليها كل ما يتلذ به الإنسان ، ولكن

---

(1) الإحياء - كتاب « السماع » ص ١١٤٢ - ١١٤٥ - طبعة دار الشعب .

حرَّمت الخمور ، واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة فى الفطام عنها ، حتى انتهى الأمر فى الابتداء إلى كسر الدنان ، فحرم معها كل ما هو من شعار أهل الشرب ، وهى الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمها من قبل الاتباع ، كما حرمت الخلوة بالأجنبية ؛ لأنها مقدمة الجِماع ، وحرم النظر إلى الفخذ ، لاتصاله بالسوأتين ، وحرم قليل الخمر ، وإن كان لا يسكر ؛ لأنه يدعو إلى السكر ، وما من حرام إلا وله حريم يطيف به ، وحكم الحُرْمة ينسحب على حريمه ، ليكون حمى للحرام ووقاية له ، وخطَّاراً مانعاً حوله .

فهى (أى الأوتار والمزامير) محرَّمة تبعاً لتحريم الخمر لثلاث علل :

إحداها : أنها تدعو إلى شرب الخمر ، فإن اللَّذات الحاصلة بها إنما تتم بالخمر . .

الثانية : أنها فى حق قريب العهد بشرب الخمر تُذكِّر مجالس الأُنس بالشرب ... والذكر سبب انبعاث الشوق ، وهو سبب الإقدام . .

الثالثة : الاجتماع عليها ، لما أن صار من عادة أهل الفسق ، فيمنع من التشبه بهم ؛ لأن مَن تشبه بقوم فهو منهم . .

وبعد كلام وتحليل جيد ، قال الغزالى : وبهذا نتبين أنه ليست العلَّة فى تحريمها : مجرد اللذَّة الطيبة ، بل القياس تحليل الطَيبات كلها ، إلا ما فى تحليله فساد . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ؟ (١) .

ورحم الله الإمام الغزالى ، فالحقيقة : أنه لم يرد نص صحيح الثبوت صريح الدلالة ، يمنع من هذه الأوتار والمزامير كما ظن ، ولكنه - رضى الله عنه - أخذ الأحاديث المروية فى الموضوع قضية مسلَّمة ، ثم حاول تفسيرها بما ذكرناه ، ولو عرف وهن أسانيد المرويات فى هذا الأمر ، ما جشم نفسه عناء هذا التعليل . وهو على كل حال تعليل مفيد لمن لا يُسلِّم بضعف هذه الأحاديث .

* *

---

(١) الإحياء ص ١١٢٨ - والآية من سورة الأعراف : ٣٢

● تحذير من التساهل فى إطلاق التحريم :

ونختم بحثنا هذا بكلمة أخيرة نوجهها إلى السادة العلماء الذين يستخفون بكلمة « حرام » ويطلقون لها العنان فى فتاواهم إذا أفتوا ، وفى بحوثهم إذا كتبوا ، عليهم أن يراقبوا الله فى قولهم ، ويعلموا أن هذه الكلمة « حرام » كلمة خطيرة : إنها تعنى عقوبة الله على الفعل ، وهذا أمر لا يُعرف بالتخمين ولا بموافقة المزاج ، ولا بالأحاديث الضعيفة ، ولا بمجرد النص عليه فى كتاب قديم ، إنما يُعرف من نص ثابت صريح ، أو إجماع معتبر صحيح ، وإلا فدائرة العفو والإباحة واسعة ، ولهم فى السَّلَف الصالح أُسوة حسنة .

قال الإمام مالك رضى الله عنه : ما شىء أشد علىَّ من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام ؛ لأن هذا هو القطع فى حكم الله ، ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا ، وإن أحدهم إذا سُئِل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه ، ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام فى الفتيا ، ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غداً لقللَّوا من هذا ، وإن عمر بن الخطاب وعلياً وعامة خيار الصحابة كانت ترد عليهم المسائل - وهم خير القرون

الذين بُعث فيهم النبى ﷺ - فكانوا يجمعون أصحاب النبى ﷺ ويسألون ، ثم حينئذ يفتون فيها ، وأهل زماننا هذا قد صار فخرهم ، فبقدر ذلك يُفتح لهم من العلم .. قال : ولم يكن من أمر الناس ولا مَن مضى من سلَفنا الذين يُقتدَى بهم ، ومعول الإسلام عليهم ، أن يقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقول : أنا أكره كذا وأرى كذا ، وأما « حلال » و« حرام » فهذا الافتراء على الله . أما سمعتَ قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وحَلالاً قُلْ ءَآللهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [1] ؛ لأن الحلال ما حللَّه الله ورسوله ، والحرام ما حرَّماه .

ونقل الإمام الشافعى فى « الأُم » عن الإمام أبى يوسف صاحب أبى حنيفة قال : « أدركتُ مشايخنا من أهل العلم يكرهون فى الفتيا أن يقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، إلا ما كان فى كتاب الله عَزَّ وجَلَّ بيِّناً بلا تفسير .

---

(١) يونس : ٥٩

وحدثنا ابن السائب عن الربيع بن خيثم - وكان أفضل التابعين - أنه قال : إياكم أن يقول الرجل : إنَّ الله أحلَّ هذا أو رضيه ، فيقول الله له : لم أحلّ هذا ولم أرضه ! ويقول : إنَّ الله حرَّم هذا ، فيقول الله : كذبتَ ، لم أحرِّمه ولم أنه عنه !

وحدثنا بعض أصحابنا عن إبراهيم النخعي أنه حدَّث عن أصحابه : أنهم كانوا إذا أفتَواْ بشيء أو نهوا عنه ، قالوا : هذا مكروه ، وهذا لا بأس به ، فأما أن يقول : هذا حلال وهذا حرام ، فما أعظم هذا » .

* * *

فن الجمال المرئى

(الرسم والتصوير والزخرفة)

• التصوير فى القرآن :

عرض القرآن الكريم للتصوير على أنه عمل من أعمال الله تبارك وتعالى ، الذى يبدع الصور الجميلة ، وخصوصاً صور الكائنات الحية ، وفى مقدمتها الإنسان :

﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (1) .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (2) .

﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (3) .

---

(1) آل عمران : ٦

(2) التغابن : ٣

(3) الانفطار : ٧ - ٨

وذكر القرآن أن من أسماء الله الحُسنى : اسم « المصوِّر » . كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (١) .

كما عرض القرآن للتماثيل فى موضعين :

أحدهما : فى موضع الذم والإنكار ، وذلك على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام ، حيث اتخذها قومه أصناماً ، أى آلهة تُعبد ، فأنكر عليهم ذلك قائلاً : ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ (٢) .

والثانى : ذكرها القرآن فى معرض الامتنان والإنعام على سليمان عليه السلام ، حيث سخَّر له الريح ، وسخَّر له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ، اعْمَلُواْ آلَ دَاوُدَ شُكْراً ﴾ (٣) .

* *

---

(١) الحشر : ٢٤ (٢) الأنبياء : ٥٢ - ٥٣

(٣) سبأ : ١٣

● التصوير فى السـُّنَّة :

أما السـُّنَّة . . فقد حفلت بأحاديث كثيرة صحيحة ، معظمها يذم التصوير والمصوِّرين ، وبعضها يشدِّد غاية التشدد فى منع التصوير وتحريمه والوعيد عليه . كما ينكر اقتناء الصور ، أو تعليقها فى البيت ، ويعلن : أنّ الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة .

والملائكة هم مظهر رحمة الله تعالى ورضاه وبركته ، فإذا مُنعت من الدخول فى بيت ، فمعناه أنه محروم من الرحمةَ والرضا والبركة .

والمتأمل فى معانى الأحاديث الواردة فى التصوير أو اقتناء الصور ، وفى سياقاتها وملابساتها ، ويقارن بين بعضها وبعض ، يتبين له : أنّ النهى والتحريم والوعيد فى تلك الأحاديث لم يكن اعتباطاً ولا تحكماً ، بل كان وراءها علل ومقاصد يهدف الشرع إلى رعايتها وتحقيقها .

*

● تصوير ما يُعظَّم ويُقدَّس :

(أ) فبعض التصوير كان يُقصد به تعظيم المصوَّر ، وهذا التعظيم يتفاوت ، حتى يصل إلى درجة التقديس ، بل العبادة .

وتاريخ الوثنيات يدل على أنها بدأت بالتصوير للتذكرة وانتهت بالتقديس والعبادة .

ذكر المفسِّرون فى قوله تعالى على لسان قوم نوح : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ [1] أنّ أسماء هذه الأصنام المذكورة ، كانت أسماء رجال صالحين ، فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون إليها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تُعبد .. حتى إذا هلك أولئك ، ونُسى العلم ، عُبِدت [2] .

وعن عائشة قالت : لما اشتكى النبى ﷺ ، ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها « مارية » ، وكانت أُم سلَمة وأُم حبيبة ، أتتا أرض الحبشة ، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها ، فرفع رأسه فقال : « أُولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوّروا فيه تلك الصور ، أُولئك شرار خلق الله » [3] .

---

(١) نوح : ٢٣ (٢) رواه البخارى وغيره عن ابن عباس .

(٣) متفق عليه .

ومن المعروف أنَّ الصور والتماثيل أروج ما تكون فى رحاب الوثنية ، كما عُرِف ذلك عند قوم إبراهيم ، وعند المصريين القدماء ، واليونان ، والرومان ، وعند الهنود - إلى اليوم - وغيرهم .

والنصرانية حينما « تروَّمت » على يد قسطنطين إمبراطور الروم - دخلها كثير مما كان عند الرومان من مظاهر الوثنية .

ولعل بعض ما ورد من الوعيد الشديد على التصوير يُقصد به الذين ينحتون الآلهة المزعومة ، والمعبودات المتنوعة عند الأمم المختلفة : وذلك مثل حديث ابن مسعود مرفوعاً : « إنّ أشد الناس عذاباً عند الله : المصوِّرون »[1] .

قال النووى : « قيل هى محمولة على مَن فعل الصورة لتُعبد ، وهو صانع الأصنام ونحوها ، فهذا كافر ، وهو أشد عذاباً ، وقيل : هى فيمن قصد المعنى الذى فى الحديث من مضاهاة خلق الله تعالى ، واعتقد ذلك ، فهذا كافر ، له من أشد العذاب ما للكفار ، ويزيد عذابه بزيادة قبح كفره »[2] .

---

(١) متفق عليه . (٢) شرح النووى على مسلم : ١٤/ ٩١

وإنما ذكر النووى ذلك ، وهو من أشد المشدِّدين فى تحريم التصوير واتخاذ الصور ؛ لأنه لا يُتصور - بحسب مقاصد الشرع - أن يكون المصوِّر العادى أشد عذاباً من القاتل والزانى وشارب الخمر والمرابى وشاهد الزور . . . وغيرهم من مرتكبى الكبائر والموبقات .

وقد روى مسروق حديث ابن مسعود المذكور بمناسبة دخوله - هو وصاحب له - بيتاً فيه تماثيل ، فقال مسروق : هذا تماثيل كسرى ؟ قال صاحبه : هذا تماثيل مريم . . فروى مسروق الحديث .

*

● تصوير ما يُعتبر من شعائر دين آخر :

(ب) وقريب من هذا اللّون من التصوير ما كان يُعبِّر عن شعائر دين معيَّن غير دين الإسلام ، وأبرز مثل لذلك « الصليب » عند النصارى . فما كان من الصور مشتملاً على الصليب فهو محرَّم بلا ريب ، ويجب على المسلم نقضه وإزالته .

وفى هذا روى البخارى عن عائشة : « أن النبى ﷺ لم يكن يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه » .

*

● المضاهاة بخلق الله :

(جـ) مضاهاة خلق الله عَزَّ وجَلَّ ، بدعوى أنه يبدع ويخلق كما يخلق الله سبحانه ، ويبدو أن هذا أمر يتعلق بقصد المصوِّر ونيَّته ، وإن كان هناك مَن يرى أنّ كل مصوِّر مضاهٍ لخلق الله .

وفى هذا جاء حديث عائشة عن النبى ﷺ : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة : الذين يضاهون بخلق الله » [(١)] .

فهذا الوعيد الغليظ يوحى بأنهم يقصدون إلى مضاهاة خلق الله ، وهو ما نقله الإمام النووى فى شرح مسلم ، إذ لا يقصد ذلك إلا كافر .

ويدل عليه حديث أبى هريرة الصحيح قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ومَن أظلم ممن

---

(١) متفق عليه .

ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذَرَّة ، وليخلقوا حبَّة ، أو ليخلقوا شعيرة » [(١)] .

فقوله : « ذهب يخلق كخلقى » يدل على القصد والتعمد .

ولعل هذا هو سر التحدى الإلهى لهم يوم القيامة ، حيث يقال لهم : « أحيوا ما خلقتم » وهو « أمر تعجيز » كما يقول الأُصوليون .

*

● دخول الصور فى مظاهر الترف :

(د) أن تكون جزءاً من أدوات الترف ومظاهره .

وهذا ما يظهر من كراهية النبى ﷺ لبعض الصور فى بيته ، فقد روت عائشة أنه عليه الصلاة والسلام خرج فى غزاة ، قالت : فأخذتُ نَمَطاً (نوعاً من البُسط اللَّطيفة أو الستائر) فسترته على الباب ، فلما قدم ، فرأى النمط ، فجذبه حتى هتكه ، ثم قال : « إنَّ الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين » قالت : فقطعنا

---

(١) متفق عليه .

منه وسادتين ، وحشوتهما ليفاً ، فلم يعب ذلك عليّ » [1] .

والنص بهذه الصيغة - « إنّ الله لم يأمرنا » - يقتضى أنه ليس بواجب ولا مندوب ، فهو لا يدل على أكثر من الكراهة التنزيهية ، كما قال الإمام النووى [2] ، ولكن بيت النبوة ، ينبغى أن يكون أُسوة ومثلاً للناس فى الترفع على زخرف الدنيا وزينتها .

يؤكد هذا حديث عائشة الآخر ، قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال لى رسول الله ﷺ : « حوّلى هذا ، فإنى كلما دخلت فرأيته ، ذكرتُ الدنيا » [3] .

ومثله : ما رواه القاسم بن محمد عنها رضى الله عنها : أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ، ممدود إلى سهوة ، فكان

---

(١) متفق عليه . (٢) شرح النووى على مسلم : ١٤/ ٨٦ ، ٨٧

(٣) رواه مسلم فى باب « تحريم الصور » : ١٤/ ٨٧

النبى ﷺ يصلى إليه ، فقال : « أخِّرِيه عنى » قالت : فأخَّرته فجعلته وسائد .

وفى رواية عند غير مسلم : « أخِّرِيه عنى ، فإنّ تصاويره تعرض لى فى صلاتى » (١) .

فهذا كله من زيادة الترفَه والتنعم ، وهو من وادى الكراهية ، لا من وادى التحريم ، ولكن النووى قال : « هذا محمول على أنه كان قبل تحريم اتخاذ ما فيه صورة ، فلهذا كان يدخل ويراه ولا ينكره » (٢) .

ومعنى هذا : أنه يرى الأحاديث التى ظاهرها التحريم ناسخة لهذا الحديث وما فى معناه ، ولكن النسخ لا يثبت بمجرد الاحتمال . فإثبات مثل هذا النسخ يستلزم أمرين :

أولهما : التحقق من تعارض النصّين ، بحيث لا يمكن الجمع بينهما ، مع أنّ الجمع ممكن بحمل أحاديث التحريم

---

(١) رواه مسلم فى باب « تحريم الصور » : ١٤/ ٨٩

(٢) مسلم مع شرح النووى : ١٤/ ٨٧

على قصد مضاهاة خلق الله ، أو بقصرها على المجسَّم (أى ما له ظل) .

وثانيهما : معرفة المتأخر من النصّين . ولا دليل على أن التحريم هو المتأخر ، بل الذى رآه الإمام الطحاوى فى « مشكل الآثار » هو العكس ، فقد شدَّد الإسلام فى شأن الصور فى أول الأمر ، لقرب عهده بالوثنية ، ثم رخَّص فى المسطحات من الصور . أى ما كان رَقْماً فى ثوب ، ونحوه .

وقد روى هذا الحديث عن عائشة بصيغة أُخرى ، تدل على شدة الكراهية من النبى ﷺ .

فعن عائشة : أنها اشترت نُمرُقة (وسادة صغيرة) فيها تصاوير ، فلما رآها رسول الله ﷺ ، قام على الباب ، فلم يدخل ، فعرفت فى وجهه الكراهية ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، أتوب إلى الله ، وإلى رسوله ، ما أذنبت ؟ فقال : « ما بال هذه النُمرُقة » ؟ قلت : اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسَّدها ، فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ أصحاب هذه الصور يُعَذَّبون يوم القيامة ، ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

وقال : « إنَّ البيت الذى فيه الصورة لا تدخله الملائكة » (١) .

* *

● نظرات فى فقه الأحاديث :

فى هذه الجو الذى كان يحيط بفن التصوير والصور فى عصر النبوة ، ورد معظم الأحاديث المحرِّمة . ولا غرو أن شدَّدت الأحاديث النبوية فى هذا الأمر ، وإن كان تشديدها فى صنعة التصوير أكثر من تشديدها فى اقتناء الصورة ، فبعض ما يحرم تصويره يجوز اقتناؤه فيما يُمتهن مثل البُسط والوسائد ونحوها مما يُبتذل بالاستعمال ، كما رأينا فى حديث عائشة .

ومن أشد ما روى فى منع التصوير : ما جاء فى الصحيحين عن ابن عباس مرفوعاً : « كل مصورٍ فى النار ، يجعل له بكل صورة صوَّرها نفساً ، فيعذبه فى جهنم » .

وفى رواية للبخارى عن سعيد بن أبى الحسن قال : كنت عند ابن عباس ، إذ جاءه رجل ، فقال :

---

(١) متفق عليه .

يا ابن عباس ؛ إنى رجل إنما معيشتى من صنعة يدىّ ، وإنىّ أصنع هذه التصاوير . فقال ابن عباس : لا أحدثك إلّا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ . سمعته يقول : « مَن صوَّر صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ فيها أبداً » . فربا الرجل ربوة شديدة (أى انتفخ غيظاً وضيقاً) فقال : « ويحك ؛ إن أبيتَ إلا أن تصنع ، فعليك بهذا الشجر ، وكل شىء ليس فيه روح » .

وروى مسلم عن حبّان بن حصين قال : « قال لى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشْرفاً إلا سوَّيته » .

وروى مسلم عن عائشة أنها قالت : واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريلُ عليه السلام ، فى ساعة يأتيه فيها ، فجاءت تلك الساعة ، ولم يأته ، وفى يده عصاً ، فألقاها من يده ، وقال : « ما يُخلف الله وعدَه ولا رسلُه » ! ثم التفت ، فإذا جروُ كلب تحت سريره ، فقال : « يا عائشة ؛ متى دخل هذا الكلب ههنا » ؟ فقالت : واللهِ ما دريتُ !

فأمر به ، فأُخرج ، فجاء جبريل ، فقال رسول الله ﷺ : « واعدتنى ، فجلستُ لك ، فلم تأت » ! فقال : منعنى الكلب الذى كان فى بيتك ، إنَّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة » [١] .

وبهذا نرى أن عدد الأحاديث التى وردت فى شأن التصوير والصور ، ليس قليلاً ، كما زعم بعض مَن كتب فى ذلك ، فقد رواها جمع من الصحابة منهم : ابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعائشة ، وعلىّ ، وأبو هريرة ، وأبو طلحة . وكلها فى الصحاح .

وقد اختلفت آراء الفقهاء فى قضية التصوير فى ضوء هذه الأحاديث ، وكان من أشدهم فى ذلك الإمام النووى الذى حرَّم تصوير كل ما فيه روح من إنسان أو حيوان ، مجسَّماً (له ظل) أو غير مجسَّم ، ممتهَناً أو غير ممتهَن ، ولكنه أجاز استعمال ما يُمتهَن ، وإن كان تصويره حراماً ، كالمصوَّر فى البُسط والوسائد ونحوها .

---

(١) رواه مسلم .

ولكن بعض فقهاء السَّلَف قصر التحريم على المجسَّم (الذى له ظل) وهو ما نطلق عليه عُرفاً « التماثيل » ، فهى أوغل فى مشابهة الوثنية ، وهى التى يظهر فيها مضاهاة خلق الله ، لأن خلق الله وتصويره مجسَّم : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (١) .

وفى الحديث القدسى : « ومَن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى » ، وخلق الله تعالى مجسَّم ، وهو الذى يمكن قبول نفخ الروح فيه ، إذ المسطح ليس قابلاً لذلك ، ولأنها أدخل فى الترف والسرف ، ولا سيما ما كان من المعادن الثمينة .

وهذا مذهب بعض السَّلَف . .

وقد قال النووى : إنَّ هذا مذهب باطل ، فتعقبه الحافظ ابن حجر بأنه مذهب القاسم بن محمد ، ولعله أخذ بعموم قوله صلى الله عليه وسلم : « إلا رَقْماً فِى ثوب » وسنذكر نص هذا الحديث .

---

(١) آل عمران : ٦

والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، ومن أفضل أهل زمانه ، وابن أخى عائشة ، وراوى حديث النمرقة عنها ، ويُحتج له بالحديث التالى :

ففى الصحيح عن بُسْر بن سعيد عن زيد بن خالد الجهنى عن أبى طلحة صاحب رسول الله ﷺ أنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إنّ الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة » . قال بُسْر : ثم اشتكى زيد بعدُ ، فعدناه ، فإذا على بابه سِتر فيه صورة ، قال : فقلت لعُبيد الله الخَولانى ربيب ميمونة زوج النبى ﷺ : ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الأول ؟ فقال : ألم تسمعه حين قال : « إلا رَقْماً فِى ثوب »

وأكد ذلك ما رواه الترمذى أنَّ سهل بن حنيف وافق أبا طلحة على هذا الاستثناء : « إلا رَقْماً فِى ثوب » .

وتأويل هذا بأن المراد به : ما كان لغير ذى روح ، يعارضه حديث تمثال الطائر الذى كان فى بيت عائشة ، وقول النبى لها : « حَوِّلى هذا ، فإنى كلما رأيته ذكرتُ الدنيا » ، أو : « فإن تصاويره تعرض لى فى صلاتى » .

فالأرجح قصر التحريم على المجسَّم ، وأما صور

اللَّوحات المسطحة على الورق ، أو الجدران ، أو الخشب ونحوها ، فأقصى ما فيها الكراهة التنزيهية ، كما ذكر الإمام الخطابى ، إلا ما كان فيه غلو وإسراف ، كالصور التى تباع بالملايين ونحوها .

ويُستثنى من المجسَّم المحرَّم : لعب الأطفال ، من الدمى والعرائس والقطط والكلاب والقرود ونحوها ، مما يتلهى به الأطفال ، لأن مثله لا يظهر فيه قصد التعظيم ، والطفال يعبثون بها .

ودليل ذلك حديث عائشة أنها كانت تلعب بالبنات (العرائس) ، وأن صواحب لها كن يجئن إليها فيلعبن معها . وكان الرسول الكريم يسر لمجيئهن إليها .

ومثل ذلك : التماثيل والعرائس التى تُصنع من الحلوى وتُباع فى بعض المناسبات ، ثم لا تلبث أن تُؤكل .

كما يُستثنى من الحظر : التماثيل التى تُشوَّه بقطع رأسها ، أو نحو ذلك منها ، كما جاء فى الحديث أن جبريل قال للرسول ﷺ : « مُرَ برأس التمثال فليُقطع حتى يصير كهيئة الشجرة » .

وأما التماثيل النصفية التى تُنصب فى الميادين ونحوها للملوك والزعماء ، فلا يخرجها من دائرة الحظر ، لأنها لا تزال تُعظَّم .

ونهج الإسلام فى تخليد العظماء والأبطال يخالف نهج الغربيين ، فهو يخلدهم بالذكر الحسن ، والسيرة الطيبة ، يتناقلها الخَلَف عن السَلَف ، ويتمثلونها ، ويأتسون بها ، وبهذا خُلِّد الأنبياء والصحابة والأئمة والأبطال والربَّانيون ، فأحبتهم القلوب ، ودعت لهم الألسنة ، وإن لم تُرسم لهم صورة ، ولا نُصِبَ لهم تمثال..

وكم من تماثيل قائمة لا يعرف الناس شيئاً عن أصحابها ، كتمثال « لاظوغلى » فى قلب القاهرة ، وكم من تماثيل يمر الناس عليها فيلعنون أصحابها (١) .

* *

● الصور الفوتوغرافية :

ومما لا خفاء فيه أنَّ كل ما ورد فى التصوير والصور ، إنما يعنى الصور التى تُنحت أو تُرسم على حسب ما ذكرنا .

---

(١) انظر فى موضوع التصوير والصور : ما فصّلناه فى كتابنا « الحلال والحرام » فصل : « فى البيت » .

أما الصور الشمسية - التى تؤخذ بآلة الفوتوغرافيا - فهى شىء مستحدَث لم يكن فى عصر الرسول ، ولا سَلَف المسلمين ، فهل ينطبق عليه ما ورد فى التصوير والمصوِّرين ؟

أما الذين يقصرون التحريم على التماثيل « المجسَّمة » فلا يرون شيئاً فى هذه الصور ، وخصوصاً إذا لم تكن كاملة .

وأما على رأى الآخرين فهل تُقاس هذه الصور الشمسية على تلك التى تبدعها ريشة الرسَّام ؟ أم أن العِلَّة التى نصَّت عليها بعض الأحاديث فى عذاب المصوِّرين - وهى أنهم يضاهون خلق الله - لا تتحقق هنا فى الصورة الفوتوغرافية ؟ وحيث عدمت العِلَّة عدم المعلول كما يقول الأُصوليون ؟

إنَّ الواضح هنا ما أفتى به المغفور له الشيخ محمد بخيت (١) مفتى مصر : « إنَّ أخذ الصورة بالفوتوغرافيا - الذى هو عبارة عن حبس الظل بالوسائط المعلومة لأرباب هذه الصناعة - ليس من التصوير المنهى عنه فى شىء ، لأن التصوير المنهى عنه هو إيجاد صورة وصنع صورة لم

---

(١) فى رسالة « الجواب الشافى فى إباحة التصوير الفوتوغرافى » .

تكن موجودة ولا مصنوعة من قبل ، يضاهى بها حيواناً خلقه الله تعالى ، وليس هذا المعنى موجوداً فى أخذ الصورة بتلك الآلة » . (يؤكد هذا تسمية أهل الخليج الصورة « عكساً » والمصوِّر « عكَّاساً ») .

هذا . . ومن المقرر أن لموضوع الصورة أثراً فى الحكم بالحُرْمة أو غيرها . ولا يخالف مسلم فى تحريم الصورة إذا كان موضوعها مخالفاً لعقائد الإسلام ، أو شرائعه وآدابه ، فتصوير النساء عاريات ، أو شبه عاريات ، وإبراز مواضع الأنوثة والفتنة منهن ، ورسمهن أو تصويرهن فى أوضاع مثيرة للشهوات ، موقظة للغرائز الدنيا ، كما نرى ذلك واضحاً فى بعض المجلات والصحف ، ودور « السينما » ، كل ذلك مما لا شك فى حُرمته ، وحُرمة تصويره ، وحُرمة نشره على الناس ، وحُرمة اقتنائه واتخاذه فى البيوت أو المكاتب والمحلات ، وتعليقه على الجدران ، وحُرمة القصد إلى رؤيته ومشاهدته .

ومثل هذا صور الكُفَّار والظَّلَمة والفُسَّاق ، الذين يجب على المسلم أن يعاديهم لله ويبغضهم فى الله ، فلا يحلُّ

لمسلم أن يصوِّر أو يقتني صورة لزعيم ملحد ينكر وجود الله ، أو وثنى يُشرك مع الله البقر أو النار أو غيرها ، أو يهودى أو نصرانى يجحد نبوة محمد ﷺ ، أو مدعٍ للإسلام وهو يحكم بغير ما أنزل الله ، أو يشيع الفاحشة والفساد فى المجتمع .

ومثل هذا : الصور التى تُعبِّر عن الوثنية أو شعائر بعض الأديان التى لا يرضاها الإسلام كالأصنام وما شابهها .

* *

● خلاصة لأحكام الصور والمصوِّرين :

ونستطيع أن نجمل أحكام الصور والمصوِّرين فى الخلاصة التالية :

(أ) أشد أنواع الصور فى الحُرمة والإثم صور ما يُعبد من دون الله ، فهذه تؤدى بمصوِّرها إلى الكفر إن كان عارفاً بذلك قاصداً له .

والمجسَّم فى هذه الصور أشد إثماً ونُكراً . وكل مَن روَّج هذه الصور أو عظَّمها بوجه من الوجوه داخل فى هذا الإثم بقدر مشاركته .

(ب) ويليه فى الإثم مَن صوَّر ما لا يُعبد ، ولكنه قصد مضاهاة خلق الله ، أى ادّعى أنه يبدع ويخلق كما يخلق الله ، فهو بهذا يقارب الكفر ، وهذا أمر يتعلق بنيَّة المصوِّر وحده .

(جـ) ودون ذلك الصور المجسَّمة لما لا يُعبد ، ولكنها مما يُعظَّم كصور الملوك والقادة والزعماء وغيرهم ممن يزعمون تخليدهم بإقامة التماثيل لهم ، ونصبها فى الميادين ونحوها ، ويستوى فى ذلك أن يكون التمثال كاملاً أو نصفياً .

(د) ودونها الصور المجسَّمة لكل ذى روح مما لا يُقدَّس ولا يُعظَّم ، فإنه متفق على حرمته ، يُستثنى من ذلك ما يُمتهن ، كلعب الأطفال ، ومثلها ما يؤكل من تماثيل الحلوى .

(هـ) وبعدها الصور غير المجسَّمة (اللّوحات الفنية) التى يُعظَّم أصحابها ، كصور الحكام والزعماء ، وغيرهم ، وخاصة إذا نُصبت وعُلقت ، وتتأكد الحُرمة إذا كان هؤلاء

من الظَلَمة والفَسَقة والملحدين ، فإن تعظيمهم هدم للإسلام .

(و) ودون ذلك أن تكون الصورة غير المجسَّمة لذى روح لا يُعظَّم ، ولكن تُعَد من مظاهر الترف ، والتنعم كأن تُستر بها الجُدُر ونحوها ، فهذا من المكروهات فحسب .

(ز) أما صور غير ذى الروح من الشجر والنخيل والبحار والسفن والجبال والنجوم والسُحُب ونحوها من المناظر الطبيعية ، فلا جُناح على مَن صوَّرها أو اقتناها ، ما لم تشغل عن طاعة أو تؤدِّ إلى ترف فتُكره .

(ح) وأما الصور الشمسية (الفوتوغرافية) فالأصل فيها الإباحة ، ما لم يشتمل موضوع الصورة على مُحرَّم ، كتقديس صاحبها تقديساً دينياً ، أو تعظيمه تعظيماً دنيوياً ، وخاصة إذا كان المعظَّم من أهل الكفر أو الفُسَّاق كالوثنيين والشيوعيين والفنانين المنحرفين .

(ط) وأخيراً . . إن التماثيل والصور المحرَّمة أو المكروهة إذا شوِّهت أو امتُهِنت ، انتقلت من دائرة الحُرْمة والكراهة إلى دائرة الحِلّ ، كصور البُسط التى تدوسها الأقدام والنعال ونحوها .

* *

● **تأويلات :**

ومن المعلوم أنَّ هناك بعض العلماء حاولوا أن يؤولوا الأحاديث الصحاح الواردة فى تحريم التصوير واقتناء الصور ليقولوا بإباحة الصور كلها حتى المجسَّمة منها .

مثل ما حكاه أبو على الفارسى فى تفسيره عمن حمل كلمة « المصوِّرين » فى الحديث على مَن جعل لله صورة ، يعنى : المجسِّمة والمشبِّهة الذى شبَّهوا الله تعالى بخلقه ، واعتبروه جسماً وصورة ، وهو تعالى ليس كمثله شىء .

ذكرهذا أبو علىّ الفارسى فى كتابه « الحُجَّة » [1] وهو تكلف واعتساف لا تساعده الألفاظ الثابتة فى الأحاديث .

ومثل مَن استند إلى ما أُبيح لسليمان عليه السلام ، وذكره القرآن فى سورة سبأ : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ . . . . ﴾ [2] ولم يقولوا بنسخه فى

---

(١) مخطوط مصوَّر بدار الكتب المصرية برقم (٤٦٣) .

(٢) سبأ : ١٣

شريعتنا . وهذا الرأى ذكره أبو جعفر النحاس ، وحكاه بعده مكىّ فى تفسيره « الهداية إلى بلوغ النهاية » [١] .

ومثل مَن حمل المنع على مجرد الكراهة ، وأن هذا التشديد كان فى ذلك الزمان لقرب عهد الناس بعبادة الأوثان ، وقد تغيَّر الحال فى العصور التالية . (هذا مع أن الوثنية لا زال يدين بها آلاف الملايين) .

وهذا قاله بعضهم من قبل ، ورد عليهم الإمام ابن دقيق العيد ، بأن « هذا القول باطل قطعاً ، لأن هذا مناف للعلَّة التى ذكرها الشارع ، وهى أنهم يضاهون أو يشبِّهون بخلق الله . قال : وهذه علَّة عامة مستقيمة مناسبة ، لا تخص زماناً دون زمان . وليس لنا أن نتصرف فى النصوص المتظاهرة المتضافرة بمعنى خيالى » [٢] .

---

(١) انظر : مقال العالم الرسام - الدكتور عبد المجيد وافى - بمجلة « رسالة الإسلام » عدد (٥١) رجب ١٣٨٣ هـ ، وقد جعله الدكتور فتحى عثمان ضمن ملاحق كتابه « الفكر الإسلامى والتطور » ملحق رقم (١٠) .

(٢) انظر : الإحكام شرح عمدة الأحكام ، لابن دقيق العيد : =

والثابت الواضح أن هذه الأقوال لم تقنع العقل المسلم ، وبالتالى لم تؤثر فى المجرى العام للحضارة الإسلامية والحياة الإسلامية ، وإن عمل بها بعض الناس فى بعض البلدان ، كما رأينا فى أسود قصر الحمراء بغرناطة فى الأندلس ، وبعض ما حكاه الإمام القرافى فى كتابه « نفائس الأُصول فى شرح المحصول » عن شمعدان وُضِعَ للملك الكامل ، كلما مضى من الليل ساعة انفتح باب منه وخرج منه شخص فى خدمة الملك .... إلخ ، وأن القرافى نفسه عمل شمعداناً زاد فيه : أن الشمعة يتغير لونها كل ساعة ، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد ، إلى الحمرة الشديدة ، ويسقط حصانان من طائرين ، ويدخل شخص ، ويخرج شخص غيره ، ويُغلق باب ويُفتح بابٌ ، فى كل ساعة لها لون .

= ٢/ ١٧١ - ١٧٣ - طبع منير ، وانظر تعليق العلَّامة الشيخ أحمد شاكر على الحديث (٧١٦٦) من مسند أحمد ، وانظر كذلك التعليق على الحديثين (١٨٦٤) ، (١٨٦٥) من كتابنا « المنتقى من الترغيب والترهيب » - طبع دار الوفاء .

وإذا طلع الفجر طلع الشخص على أعلى الشمعدان ، واصبعه فى أُذنه ، يشير إلى الأذان ، قال القرافى : غير أني عجزت عن صنعة الكلام [1] .

وقريب من ذلك ما حكاه ابن جبير فى رحلته عن وصف الساعة التى كانت بجامع دمشق ، وفيها تمثال صقور . . . . إلخ .

* *

● المزاج العام للحضارة الإسلامية :

ولكن المؤكد أنَّ المزاج العام للحضارة الإسلامية لم يرحب بصور الإنسان والحيوان ، وخصوصاً المجسَّمة منها ، وغلب عليه التجريد ، اللائق بعقيدة التوحيد ، لا التجسيم اللائق بالوثنيات على اختلاف درجاتها .

ومن هنا اتجه الفن « التشكيلى » فى حضارتنا إلى أُمور أخرى أبدع فيها أيما إبداع ، وترك فيها آثاراً رائعة الجمال .

---

(١) نقل ذلك الدكتور وافى فى مقاله المذكور .

تجلّت فى الزخارف التى تفنَّن فيها عقل الفنان المسلم ويده وريشته ، وتجلَّى ذلك فى المساجد والمصاحف والقصور والمنازل وغيرها : على الجدران والسقوف ، والأبواب والنوافذ ، وعلى الأرضيات أحياناً ، وفى الأدوات المنزلية ، وفى الأثاث ، والتحف والبُسط والثياب والسيوف ، واستخدمت المواد المختلفة من الحجارة والرخام والخشب ، والخزف والجلد والزجاج ، والورَق والحديد والنحاس ، والمعادن المتنوعة .

ودخل فى الزخرفة : الخط العربى بأنواعه المختلفة من الثُلُث والنسخ والرقعة والفارسى والديوانى والكوفى وغيرها ، وافتنَّ الخطاطون فى ذلك كل الافتنان ، وخلَّفوا لنا لوحات فى غاية الحسن والإبداع .

وأكثر ما تجلَّى الفنّان « الخط والزخرفة » فى المصاحف والجوامع . أما الجوامع فلا زلنا نشهد منها آيات فى الجمال ، كما فى المسجد النبوى ، ومسجد قبة الصخرة ، والجامع الأموى بدمشق ، وجامع السلطان أحمد والسليمانية باستانبول ، وجامع السلطان حسن وجامع

محمد عليّ بالقاهرة ، وغيرها وغيرها فى أنحاء العالَم الإسلامى .

وأبرز ما تجلَّى فيه الفن الإسلامى إنما كان فى العمارة ، وقد قال مؤرخو الحضارة : إن فن البناء أحسن معبِّر عن الفن الإسلامى ، وقد ظهر ذلك فى روائع كثيرة فى أقطار عدة ، لعل أبرزها فى الهند : إحدى عجائب الدنيا المتمثلة فى تلك الرائعة الهندسية الجمالية : « تاج محلّ » .

وهكذا كان منع التصوير والنحت سبباً لفتح أبواب أخرى فى عالَم الفنون ، جعلت للعالَم الإسلامى تميزه الخاص ، ومثاليته المتفردة (١) .

* * *

---

(١) انظر : مجالى الإسلام – تأليف حيدر بامّات : الفصل الثانى عشر « خلاصة الفن الإسلامى » ص ٤٠٧ – ٤٤٥ ترجمة عادل زعيتر – طبع عيسى الحلبى .

فن الفكاهة والمرح
(الكوميديا)

الحياة رحلة شاقة ، حافلة بالمتاعب والآلام ، ولا يسلم امرؤ فيها من تجرع لون أو ألوان من غصصها ، ومكابدة آلامها ، وإن وُلِد وفى فمه ملعقة من ذهب ، كما يقولون .

وقد أشار القرآن إلى ذلك حين قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (١) .

وأهل الإيمان أكثر تعرضاً لبلاء الدنيا من غيرهم ، نظراً لخطورة مطلبهم ، من ناحية ، وكثرة مَن يعارضهم ويقطع عليهم طريقهم من ناحية أخرى .

حتى ورد فى بعض الآثار : « المؤمن بين خمس شدائد :

(١) البلد : ٤

مسلم يحسده ، ومنافق يبغضه ، وكافر يقاتله ، وشيطان يضله ، ونفس تنازعه » .

وثبت فى الحديث أن أشد الناس بلاءً : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

لهذا كان الناس - كل الناس - فى حاجة إلى واحات فى طريقهم تخفف عنهم بعض عناء رحلة الحياة ، وكان لا بد لهم من أشياء يروحون بها أنفسهم ، حتى يضحكوا ويفرحوا ويمرحوا ، ولا يغلب عليهم الغم والحزن والنكد ، فينغص عليهم عيشهم ، ويكدر عليهم صفوهم .

وكان من تلك الأدوات : الغناء ، وقد تحدَّثنا عنه .

ومنها : الفكاهة والمرح ، وكل ما يستخرج الضحك من الإنسان ، ويطارد الحزن من قلبه ، والعبوس من وجهه ، والكآبة من حياته .

فهل يرحب الدين بهذا الفن « الكوميدى » أو يضيق به ؟ هل يحله أو يحرِّمه ؟

* *

• الفكاهة والمرح فى واقع المسلمين :

وقد رأيت الناس - بفطرتهم - وعلى قدر ما سمحت به إمكاناتهم ، وفى ضوء ما عرفوه من سماحة دينهم - قد ابتكروا ألواناً من الوسائل والأدوات التى تقوم بوظيفة الترويح والإضحاك لهم .

من ذلك : « النكت » التى برع فيها المصريون ، واشتهروا بها بين الشعوب ، وهى أنواع مختلفة ، ولها مهمات متعددة ، ومنها : « النكت السياسية » التى تهزأ بالحُكَّام وأعوانهم ، وخصوصاً فى أوقات التسلط والاستبداد السياسى .

ولا يكاد يجلس الناس بعضهم إلى بعض إلا حكوا من هذه النكت ما يضحكهم ويسرى عنهم بعض ما يعانون . أحياناً يسندونها إلى أسماء معروفة ، مثل جحا ، أو أبى نواس ، أو غيرهما ، وأحياناً لا ينسبونها إلى معيَّن .

وهناك أُناس لا يقتصرون على حكاية النكت عن غيرهم ، بل هم ينشئون نكتاً على البديهة ، وهذا شأن الشخصيات

الفكهة ، مثل « أشعب » قديماً ، ومثل الشيخ « عبد العزيز البشرى » حديثاً فى مصر .

وكانت فى مصر بعض المجلات المتخصصة فى هذا اللّون ، أشهرها مجلة « البعكوكة » .

ويلحق بذلك فن « القفشات » وما يسميه المصريون « الدخول فى قافية » ، وهو لون من استخدام المجاز والتورية حول موضوع واحد ، يتطارح فيه الطرفان .

ومن ذلك : ألوان من الألعاب التى تدعو إلى الضحك والمرح ، مثل لعبة « الأراجوز » .

ومثله « خيال الظل » الذى كان يُعتبر نوعاً من التمثيل الشعبى الفكاهى .

ومن ذلك : الألغاز والأحاجى ، أو ما يسمى فى لغة العامة « الفوازير » .

ومن ذلك : القصص الفكاهية ، أو ما يسميه العوام « الحواديت » المسلية والمرفهة .

ومن ذلك : « الأمثال الشعبية » التى كثيراً ما تتضمن أفكاراً أو تعبيرات تبعث على الضحك والمرح . . .

إلى غير ذلك من الألوان ، التى تخترعها الشعوب بوساطة فنانين معروفين أو مجهولين غالباً ، ملائمة لكل بيئة وما يسودها من قيم ومفاهيم ، وما تمر به من ظروف وأحوال .

وكل عصر يضيف أشياء جديدة ، ويُطوِّر الأشياء القديمة ، وقد يستغنى عن بعضها .

كما نرى فى عصرنا فن « الكاريكاتير » الذى حوَّل النكتة من مجرد كلمة تُقال ، إلى صورة معبِّرة ، مصحوبة ببعض الكلام ، أو غير مصحوبة .

وقد سئلت عن موقف الدين من الضحك والمرح والفكاهة ، نظراً لما يبدو على بعض المتدينين من العبوس والتجهم ، فيكادون لا يضحكون ، ولا يمزحون ، حتى حسب بعض الناس أن هذه هى طبيعة الدين والتدين .

وكان جوابى : أن الضحك من خصائص الإنسان ، فالحيوانات لا تضحك ؛ لأن الضحك يأتى بعد نوع من الفهم والمعرفة لقول يسمعه ، أو موقف يراه ، فيضحك منه .

ولهذا قيل : الإنسان حيوان ضاحك ، ويصدق القول هنا : أنا أضحك ، إذن أنا إنسان .

والإسلام - بوصفه دين الفطرة - لا يُتصور منه أن يصادر نزوع الإنسان الفطرى إلى الضحك والانبساط ، بل هو على العكس يرحب بكل ما يجعل الحياة باسمة طيبة ، ويحب للمسلم أن تكون شخصيته متفائلة باشَّة ، ويكره الشخصية المكتئبة المتطيرة ، التى لا تنظر إلى الحياة والناس إلا من خلال منظار قاتم أسود .

وأُسوة المسلمين فى ذلك هو رسول الله ﷺ ، فقد كان - برغم همومه الكثيرة والمتنوعة - يمزح ولا يقول إلا حقاً ، ويحيا مع أصحابه حياة فِطرية عادية ، يشاركهم فى ضحكهم ولعبهم ومزاحهم ، كما يشاركهم آلامهم وأحزانهم ومصائبهم .

يقول زيد بن ثابت ، وقد طُلب إليه أن يحدثهم عن حال رسول الله ﷺ فقال : « كنت جاره ، فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلىَّ فكتبته له ، فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا

الطعام ذكره معنا ، قال : فكل هذا أحدثكم عن رسول الله ﷺ » [1] .

وقد وصفه أصحابه بأنه كان من أفكه الناس [2] .

وقد رأيناه فى بيته - صلى الله عليه وسلم - يمازح زوجاته ويداعبهن ، ويستمع إلى أقاصيصهن ، كما فى حديث أم زرع الشهير فى صحيح البخارى .

وكما رأينا فى تسابقه مع عائشة رضى الله عنها ، حيث سبقته مرة ، وبعد مدة تسابقا فسبقها ، فقال لها : « هذه بتلك » !

وقد روى أنه وطأ ظهره لسبطيه الحسن والحسين ، فى طفولتهما ليركبا ، ويستمتعا دون تزمت ولا تحرج ، وقد دخل عليه أحد الصحابة ورأى هذا المشهد فقال : نِعْمَ المركب ركبتما ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ونِعْمَ الفارسان هما » !

ورأيناه يمزح مع تلك المرأة العجوز التى جاءت تقول له :

---

(١) رواه الطبرانى بإسناده حسن كما فى « مجمع الزوائد » : ٩/ ١٧

(٢) ذكره فى « كنز العمال » برقم (١٨٤٠٠) .

ادع الله أن يُدخلنى الجنَّة ، فقال لها : « يا أُم فلان ؛ إنَّ الجنَّة لا يدخلها عجوز » ! فبكت المرأة ، حيث أخذت الكلام على ظاهره ، فأفهمها : أنها حين تدخل الجنَّة لن تدخلها عجوزاً ، بل شابة حسناء .

وتلا عليها قول الله تعالى فى نساء الجنَّة : ﴿ إنَّا أنشَأْنَاهُنَّ إنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أبْكَاراً * عُرُباً أتْرَاباً ﴾ [1] .

وجاء رجل يسأله أن يحمله على بعير ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « لا أحمك إلا على ولد الناقة » ! فقال : يا رسول الله ؛ وماذا أصنع بولد الناقة ؟! - انصرف ذهنه إلى الحُوار الصغير - فقال : « وهل تلد الإبل إلا النوق » ؟ [2] .

وقال زيد بن أسلم : إن امرأة يقال لها أُم أيمن جاءت

---

(١) الواقعة : ٣٥ - ٣٧ ، والحديث أخرجه الترمذى فى « الشمائل » ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر والبيهقى وغيرهم ، وحسَّنه الألبانى فى « غاية المرام » .

(٢) رواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح وأخرجه أبو داود أيضاً .

إلى النبى ﷺ فقالت : إن زوجى يدعوك ، قال : « ومَن هو ؟ أهو الذى بعينه بياض » ؟ قالت : واللهِ ما بعينه بياض ! فقال : « بلى إنَّ بعينه بياضاً » فقالت : لَا واللهِ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد إلا بعينه بياض » [1] ، وأراد به البياض المحيط بالحدقة .

وقال أنس : كان لأبى طلحة ابن يقال له أبو عمير ، وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول : « يا أبا عمير ؛ ما فعل النغير » ؟ [2] لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور .

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حَرِيرَة (دقيق يُطبخ بلَبن أو دسم) وجئت به ، فقلت لسَوْدة : كلى ، فقالت : لا أحبه ، فقلت : واللهِ لتأكلن أو لألطخن به وجهك ، فقالت : ما أنا بذائقته ، فأخذت بيدى من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ، ورسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الزبير بن بكار فى كتاب « الفكاهة والمرح » ، ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهرى مع اختلاف ، كما ذكر العراقى فى « تخريج الإحياء » .

(٢) متفق عليه .

جالس بينى وبينها ، فخفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه لتستقيد منى . فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهى ! وجعل رسول الله ﷺ يضحك (١) .

وروى أن الضحَّاك بن سفيان الكلابى كان رجلاً دميماً قبيحاً ، فلما بايعه النبى ﷺ قال : إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء - وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب - أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها ! - وعائشة جالسة تسمع - فقالت : أهى أحسن أم أنت ؟ فقال : بل أنا أحسن منها وأكرم ، فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه ؛ لأنه كان دميماً (٢) .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب إشاعة السرور والبهجة

---

(١) أخرجه الزبير بن بكار فى كتاب « الفكاهة والمرح » ، وأبو يعلى بإسناد جيد كما فى « تخريج الإحياء » .

(٢) قال الحافظ العراقى : أخرجه الزبير بن بكار فى « الفكاهة والمرح » من رواية عبد الله بن حسن مرسلاً أو معضلاً ، وللدارقطنى نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبى هريرة .

فى حياة الناس ، وخصوصاً فى المناسبات مثل الأعياد والأعراس .

ولما أنكر الصِّدِّيق أبو بكر رضى الله عنه غناء الجاريتين يوم العيد فى بيته وانتهرهما ، قال له : « دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد » !

وفى بعض الروايات : « حتى يعلم يهود أنَّ فى ديننا فسحة » .

وقد أذن للحبشة أن يلعبوا بحرابهم فى مسجده عليه الصلاة والسلام فى أحد أيام الأعياد ، وكان يحرضهم ويقول : « دونكم يا بنى أرفدة » !

وأتاح لعائشة أن تنظر إليهم من خلفه ، وهم يلعبون ويرقصون ، ولم ير فى ذلك بأساً ولا حَرَجاً .

واستنكر يوماً أن تُزَف فتاة إلى زوجها زفافاً صامتاً ، لم يصحبه لهو ولا غناء ، وقال : « هلّا كان معها لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللَّهو ، أو الغزل » .

وفي بعض الروايات : « هلّا بعثتم معها مَن تغنى وتقول : أتيناكم أتيناكم . . فحيونا نحييكم » .

وكان أصحاب النبى ﷺ ومَن تبعهم بإحسان فى خير قرون الأمة يضحكون ويمزحون ، اقتداءً بنبيهم ﷺ ، واهتداءً بهَدْيه . حتى إن رجلاً مثل عمر بن الخطاب - على ما عُرف عنه من الصرامة والشدة - يُروى عنه أنه مازح جارية له ، فقال لها : خلقنى خالق الكرام ، وخلقكِ خالق اللِّئام ! فلما رآها ابتأست من هذا القول ، قال لها مبيناً : وهل خالق الكرام واللِّئام إلا الله عَزَّ وجَلَّ ؟؟

وقد عُرِف بعضهم بذلك فى حياته - صلى الله عليه وسلم - وأقرَّه عليه ، واستمر على ذلك من بعده ، وقبله الصحابة ، ولم يجدوا فيه ما يُنكر ، برغم أن بعض الوقائع المروية فى ذلك لو حدثت اليوم لأنكرها معظم المتدينين أشد الإنكار ، وعدُّوا فاعلها من الفاسقين أو المنحرفين !

من هؤلاء المعروفين بروح المرح والفكاهة والميل إلى الضحك والمزاح : النعيمان بن عمر الأنصارى رضى الله عنه ، الذى رويت عنه فى ذلك نوادر عجيبة وغريبة .

وقد ذكروا أنه كان ممن شهد العقبة الأخيرة ، وشهد بدراً وأُحُداً ، والخندق ، والمشاهد كلها .

روى عنه الزبير بن بكار عدداً من النوادر الطريفة فى كتابه « الفكاهة والمرح » نذكر بعضاً منها . . .

قال : وكان لا يدخل المدينة طُرْفة إلا اشترى منها ، ثم جاء بها إلى النبى ﷺ فيقول : هذا أهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بثمنها ، أحضره إلى النبى ﷺ ، قائلاً : أعط هذا ثمن متاعه ، فيقول : « أوَ لم تهده لى » ؟ فيقول : إنه واللهِ لم يكن عندى ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكله ! فيضحك ، ويأمر لصاحبه بثمنه .

وأخرج الزبير قصة أخرى من طريق ربيعة بن عثمان قال : دخل أعرابى على النبى ﷺ ، وأناخ ناقته بفنائه ، فقال بعض الصحابة للنعيمان الأنصارى : لو عقرتها فأكلناها ، فإنَّا قد قرمنا إلى اللَّحم ؟ ففعل ، فخرج الأعرابى وصاح : واعقراه يا محمد ! فخرج النبى ﷺ فقال : « مَن فعل هذا » ؟ فقالوا : النعيمان ، فأتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ،

واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد ، فأشار رجل إلى النبى ﷺ حيث هو فأخرجه فقال له : « ما حملك على ما صنعت » ؟ قال : الذين دلوك عليّ يا رسول الله هم الذين أمرونى بذلك ، قال : فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك ، ثم غَرِمها للأعرابى .

وقال الزبير أيضاً : حدَّثنى عمى عن جدى قال : كان مخرمة بن نوفل قد بلغ مائة وخمس عشرة سنة ، فقام فى المسجد يريد أن يبول ، فصاح به الناس ، المسجد المسجد ، فأخذه نعيمان بن عمرو بيده ، وتنحى به ، ثم أجلسه فى ناحية أخرى من المسجد فقال له : بلْ هنا ، قال : فصاح به الناس فقال : ويحكم ، فمَن أتى بى إلى هذا الموضع ؟! قالوا : نعيمان ، قال : أما إنَّ لله عليّ إن ظفرتُ به أن أضربه بعصاى هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت ! فبلغ ذلك نعيمان ، فمكث ما شاء الله ، ثم أتاه يوماً ، وعثمان قائم يصلى فى ناحية المسجد ، فقال لمخرمة : هل لك فى نعيمان ؟ قال : نعم ، قال : فأخذه بيده حتى أوقفه على عثمان ، وكان إذا صلى لا يلتفت فقال : دونك هذا نعيمان ،

فجمع يده بعصاه ، فضرب عثمان فشجّه ، فصاحوا به : ضربتَ أمير المؤمنين ! فذكر بقية القصة [1] .

ومن الطرائف أن صحابياً آخر من أهل الفكاهة والمزاح ، استطاع أن يوقع نعيمان فى بعض ما أوقع فيه غيره من « المقالب » كما فى قصة سويبط بن حرملة معه ، وكان ممن شهد بدراً أيضاً ، قال ابن عبد البر فى « الاستيعاب » فى ترجمة سويبط رضى الله عنه : وكان مزّاحاً يفرط فى الدعابة ، وله قصة ظريفة مع نعيمان وأبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنهم ، نذكرها لما فيها من الظرف ، وحسن الخُلُق .

روى عن أُم سلمة قالت : خرج أبو بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه فى تجارة إلى بصرى قبل موت النبى ﷺ بعام ، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة ، وكانا قد شهدا بدراً ، وكان نعيمان على الزاد ، فقال له سويبط - وكان رجلاً مزّاحاً - : أطعمنى ، فقال : لا حتى يجئ أبو بكر

---

(١) ذكر هذه القصص الحافظ ابن حجر فى ترجمة نعيمان من كتابه « الإصابة » نقلاً عن كتاب الزبير بن بكار فى كتابه « الفكاهة والمرح » .

رضى الله عنه ، فقال : أما والله لأغيظنك ، فمروا بقوم فقال لهم سويبط : تشترون منى عبداً ؟ قالوا : نعم ، قال : إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : إنى حر ، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه ، فلا تُفسدوا عليَّ عبدى ، قالوا : بل نشتريه منك ، قال : فاشتروه منه بعشر قلائص ، قال : فجاءوا فوضعوا فى عنقه عمامة أو حبلاً ، فقال نعيمان : إنَّ هذا يستهزئ بكم ، وإنى حر ، لست بعبد ، قالوا : قد أخبرنا خبرك ، فانطلقوا به ، فجاء أبو بكر رضى الله عنه ، فأخبره سويبط فأتبعهم ، فرد عليهم القلائص ، وأخذه ، فلما قدموا على النبى ﷺ أخبروه قال : فضحك النبى ﷺ وأصحابه منها حَوْلاً (١) .

* *

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وابن ماجه ، وأخرجه أبو داود الطيالسى والرويانى فجعلا المازح هو النعيمان والمبتاع سويبطاً ، كما فى ترجمته فى « الإصابة » .

● موقف المتشددين :

ولا ريب أن هناك من الحكماء والأدباء والشعراء مَن ذمَّ المزاح ، وحذَّر من سوء عاقبته ، ونظر إلى جانب الخطر والضرر فيه ، وأغفل الجوانب الأخرى .

ولكن ما جاء عن رسول الله ﷺ وأصحابه أحق أن يُتبع ، وهو يمثل التوازن والاعتدال .

وقد قال لحنظلة حين فزع من تغير حاله فى بيته عن حاله مع رسول الله ﷺ ، واتهم نفسه بالنفاق : « يا حنظلة ؛ لو دمتم على الحال التى تكونون عليها عندى لصافحتكم الملائكة فى الطرقات ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة » . . وهذه هى الفطرة ، وهذا هو العدل .

روى ابن أبى شيبة عن أبى سلَمة بن عبد الرحمن قال : لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين ولا متماوتين . كانوا يتناشدون الأشعار ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحدهم على شىء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون [1] .

---

(١) المصنف لابن أبى شيبة : ٨/ ٧١١ بلفظ : « منحرفين » بدل « متحزقين » والتصويب من غريب الحديث للخطابى : ٣/ ٤٩

والتحزق كما يقول الإمام الخطابى : التجمع وشدة التقبض .

وفى النهاية لابن الأثير : متحزقين : أى منقبضين ومجتمعين .

وسئل ابن سيرين عن الصحابة : هل كانوا يتمازحون ؟ فقال : ما كانوا إلا كالناس . كان ابن عمر يمزح وينشد الشعر [1] .

وبهذا يكون موقف أولئك النفر من المتدينين أو المتحمسين للدين ، وعبوسهم وتجهمهم الذى ظنه البعض من صميم الدين ، لا يمثل حقيقة الدين فى شىء ، ولا يتفق مع هَدْى الرسول الكريم وأصحابه .

إنما يرجع إلى سوء فهمهم للإسلام ، أو لطبيعتهم الشخصية ، أو لظروف نشأتهم وتربيتهم .

وعلى كل حال ، لا يجهل مسلم أن الإسلام لا يؤخذ من سلوك فرد أو مجموعة من الناس ، يخطئون ويصيبون .

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية : ٢/ ٢٧٥

والإسلام حُجَّة عليهم ، وليسوا هم حُجَّة على الإسلام ، إنما يؤخذ الإسلام من القرآن والسُّنَّة الثابتة .

* *

● حدود المشروعية فى الضحك والمزاح :

إن الضحك والمرح والمزاح أمر مشروع فى الإسلام ، كما دلَّت على ذلك النصوص القولية ، والمواقف العملية للرسول الكريم ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم .

وما ذلك إلا لحاجة الفِطرة الإنسانية إلى شىء من الترويح يخفف عنها لأواء الحياة وقسوتها ، وتشعب همومها وأعبائها .

كما أن هذا الضرب من اللَّهو والترفيه يقوم بمهمة التنشيط للنفس ، حتى تستطيع مواصلة السير والمضى فى طريق العمل الطويل ، كما يريح الإنسان دابته فى السفر ، حتى لا تنقطع به .

فمشروعية الضحك والمرح والمزاح لا شك فيها فى الأصل ، ولكنها مقيَّدة بقيود وشروط لا بد أن تُراعَى :

أولها : ألا يكون الكذب والاختلاق أداة الإضحاك للناس ، كما يفعل بعض الناس فى أول إبريل (نيسان) فيما يسمونه « كذبة إبريل » .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « ويل للذى يُحدِّث فيكذب ، ليُضحك القوم ، ويل له ، ويل له ، ويل له » (١) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً .

ثانياً : ألا يشتمل على تحقير لإنسان آخر ، أو استهزاء به وسخرية منه ، إلا إذا أذن بذلك ورضى .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ ، بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ (٢) .

وجاء فى صحيح مسلم : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وحسّنه والنسائى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

(٢) الحجرات : ١١

وذكرت عائشة أمام النبى ﷺ إحدى ضرائرها ، فوصفتها بالقصر تعييبها به ، فقال : « يا عائشة ؛ لقد قلتِ كلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجته » .

قالت : وحكيت له إنساناً - أى قلَّدته فى حركته أو صوته أو نحو ذلك - فقال : « ما أحب أنى حكيت إنساناً وأن لى كذا وكذا » (١) .

ثالثاً : ألا يترتب عليه تفزيع وترويع لمسلم .

فقد روى أبو داود عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : حدثنا أصحاب محمد ﷺ ، أنهم كانوا يسيرون مع النبى صلى الله عليه وسلم فقام رجل منهم ، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ، ففزع ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يحل لرجل أن يروع مسلماً » .

وعن النعمان بن بشير قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير ، فخفق رجل على راحلته (أى نعس) فأخذ رجل سهماً من كنانته فانتبه الرجل ، ففزع ، فقال رسول الله

---

(١) رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حسن صحيح .

صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لرجل أن يروع مسلماً » [1] . . والسياق يدل على أن الذى فعل ذلك كان يمازحه .

وقد جاء فى الحديث الآخر : « لا يأخذ أحدكم متاع أخيه لاعباً ولا جاداً » [2] .

رابعاً : ألا يهزل فى موضع الجد ، ولا يضحك فى مجال يستوجب البكاء ، فلكل شيء أوانه ، ولكل أمر مكانه ، ولكل مقام مقال . والحكمة وضع الشيء فى موضعه المناسب .

ومن ممادح الشعراء :

إذا جــدَّ عند الجِد أرضــاك جده
وذو باطل إن شئتَ ألهاك باطله !

والباطل هنا يقصد به اللَّهو والمرح .

وقال آخر :

أهازِلُ حيث الهزل يحسن بالفتى
وإنى إذا جدَّ الرجال لذو جد !

---

(١) رواه الطبرانى فى « الكبير » ورواته ثقات .

(٢) رواه الترمذى وحسَّنه .

وروى الأصمعى أنه رأى امرأة بالبادية تصلى على سجادتها خاشعة ضارعة ، فلما فرغت وقفت أمام المرآة تتجمل وتتزين ، فقال لها : أين هذه من تلك ؟

فأنشدت تقول :

ولله منى جانب لا أُضيعه   وللّهو منى والبطالة جانب !

قال : فعرفتُ أنها امرأة عابدة لها زوج تتجمل له .

وقد عاب الله تعالى على المشركين أنهم كانوا يضحكون عند سماع القرآن وكان أولى بهم أن يبكوا ، فقال تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ (١) .

خامساً : أن يكون ذلك بقدر معقول ، وفى حدود الاعتدال والتوازن ، الذى تقبله الفطرة السليمة ، ويرضاه العقل الرشيد ، ويلائم المجتمع الإيجابى العامل .

والإسلام يكره الغلو والإسراف فى كل شىء ، ولو فى العبادة ، فكيف باللّهو والمرح ؟!

---

(١) النجم : ٥٩ - ٦١

ولهذا كان التوجيه النبوى : « ولا تكثر من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » ؛ فالمنهى عنه هو الإكثار والمبالغة .

وقد ورد عن علىّ رضى الله عنه قوله : « أعط الكلام من المزح ، بمقدار ما تعطى الطعام من الملح » .

وهو قول حكيم ، يدل على عدم الاستغناء عن المزح ، كما يدل على ضرر الإفراط فيه .

وخير الأُمور هو الوَسَط دائماً ، وهو نهج الإسلام وخصيصته الكبرى ، ومناط فضل أُمته على غيرها [1] .

* * *

(١) انظر : كتابنا « فتاوى معاصرة » : ٢/ ٤٤٥ - ٤٥٧ ، طبع دار الوفاء .

فن اللَّعِب

• الحاجة إلى اللَّعِب :

كما عرفت الشعوب فن الغناء تشنِّف به الآذان ، وفن الرسم والتصوير تنعم به الأعين ، وفن الفكاهة والمرح تضحك له الأفواه . فهناك فنون أخرى عرفها الناس ، تدفع عن الحياة الرتابة ، وعن النفوس الملالة ، وهى تتمثل فى أنواع الألعاب المختلفة ، مما عرفنا وما لم نعرفه ، مما يشغل أوقات الفراغ من ناحية ، ولا يخلو من بعض الفوائد من ناحية أخرى .

* *

• ألوان اللَّعِب لدى الشعوب :

وبعض هذه الألعاب يدخل فيما يُعرف فى عصرنا بأنواع الرياضة البدنية » مثل السباحة ، والعدو ، والوثب بأنواعه ، وألعاب القوى وما يسمى « الجمباز » ، وألعاب الكرة بأنواعها ، والتزحلق على الجليد .

وبعضها أقرب إلى الفنون العسكرية مثل : الرماية واللّعب بالحراب والسيوف ، وركوب الخيل .

وبعضها ألعاب تسلية ، تزجية للوقت ، ومنها : ما فيه شحذ للعقل مثل الشطرنج ، و« السيجا » ، و« الدومينو » ونحوها ، ومنه ما يقوم على الحظ مثل « النرد » .

ومن هذه الألعاب : ما يُؤدَى فردياً ، ومنه ما لا بد له من لاعِبَيْن ، كالمصارعة والملاكمة .

ومنه ما يحتاج إلى فريقين ، مثل : لعبة شد الحبل ، وهى لعبة شعبية قديمة ، ومثلها ألعاب الكرة .

ومنه : ما يدخل فيه السباق : بين فردين ، أو فريقين ، أو مجموعة أفراد ، أو مجموعة فِرَق .

ومنه : الألعاب السحرية ، التى تقوم على الشعوذة وخِفَّة اليد ، أو على السحر بالفعل .

ومنه : الألعاب البهلوانية ، كالتى تُقدَّم فى « السيرك » وتُدهش النظَّارة ، بما فيها من مهارات فائقة ، وقدرات شبه خارقة .

ومنه : ما يستخدم الإنسان فيه الطيور والحيوانات ، مثل : اللَّعِب بالحمام ، والتحريش بين الديوك بعضها وبعض ، أو بين الكباش بعضها وبعض . وقريب منها : مصارعة الثيران .

ومن هذا الباب : اللَّعِب بالقرود والدببة (جمع دُبٍّ) عن طريق تدريبها على أعمال تعجب وتدهش .

وكذلك : ترقيص الخيل ، واستخدام الفيلة .

وأعجب منه ، ترويض الأُسود والفهود والنمور .

وفى المهرجانات الشعبية فى بلد كمصر ، فى الأعياد والموالد والمناسبات ، يشاهد الجمهور كثيراً من الألعاب التى توارثها الناس ، وهى ألوان مختلفة ، ومعروضات متنوعة .

ولدى كل الشعوب أمثال هذه الألعاب ، بعضها مما توارثوه ، وبعضها مما ابتكروه .

والباب مفتوح للتجديد والابتكار فى هذا المجال ، كالذى نشاهده فى التليفزيون بين بعض الأندية الألمانية

وبعض من مسابقات تعتبر غاية فى الطرافة واستخراج الضحك من الإنسان .

وقد نافسهم اليابانيون فى ذلك ، وابتكروا أشياء مماثلة أيضاً .

والسؤال الكبير هنا : ما موقف الإسلام من ذلك كله ؟

* *

● موقف الإسلام :

وموقف الإسلام من هذه الألوان المختلفة من اللَّعِب أو الألعاب يتضح فيما يلى :

* ما يجيزه الإسلام من الألعاب :

لا يمنع الإسلام من اللَّهو بمختلف « الألعاب » ، بل يرى ذلك أمراً مشروعاً ، يحتاج إليه الفرد ، وتحتاج إليه الجماعة . ولو لم يكن الهدف منها إلا التسلية ، أو الترويح ، أو الإضحاك . وما ذكرناه فى شرعية الضحك ، وشرعية الغناء ، وما نقلناه عن الغزالى وابن حزم وغيرهما يُذكر هنا أيضاً .

بل هناك بعض أنواع من الألعاب ، يحث الإسلام عليها ، مثل الألعاب التى تدخل فى فنون الرياضة ، أو الفنون العسكرية ، لما فيها من تقوية الأجسام ، واكتساب المهارات ، وتنمية القدرات .

وقد جاء فى السُّنَّة : الحث على الرماية ، وركوب الخيل ، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

وقد شرع الإسلام عيدى الفِطر والأضحى ، بديلين ليومين كان يلعب فيهما الأنصار فى الجاهلية .

وقد أذن النبى ﷺ للحبشة أن يرقصوا بحرابهم وأسلحتهم فى مسجده الشريف فى يوم عيد ، وكان يحثهم ويقول : « دونكم يا بنى أرفدة » . . وقد سبق ذلك .

*

* ما يمنعه الإسلام من ألوان اللعب :

إنما يتحفظ الإسلام على بعض ألعاب تتنافى مع مقاصده وأحكامه ، مثل :

(أ) الألعاب التى تقوم على المخاطرة الشديدة دون

ضرورة إليها ، مثل : الملاكمة ، لما فيها من شدة إيذاء النفس والغير ، بلا حاجة .

(ب) الألعاب التى تظهر فيها أجسام النساء - أى ما لا يحل رؤيته منها - أمام الرجال الأجانب ، كما فى حالات السباحة والجمباز ونحوها ، وينبغى أن يكون لهن مسابح وملاعب خاصة ، لا يدخلها الرجال .

(جـ) الألعاب التى تقوم على السحر الحقيقى ، فإنه من « السبع الموبقات » ويحرم تعليمه أو ترويجه فى الناس .

(د) الألعاب التى تقوم على الخداع والاحتيال على الناس ، لأكل أموالهم بالباطل ، كالذى يسميه الناس فى مصر « الثلاث ورقات » !

(هـ) الألعاب التى تُعرِّض الحيوانات أو الطيور للإيذاء ، مثل صراع الديوك أو الكباش . وقد ثبت النهى عن التحريش بين البهائم . فلا يجوز للإنسان أن يتلهى بمنظر الدماء تسيل من هذه العجماوات ، ومَن لا يَرحم لا يُرحم .

(و) الألعاب التى تقوم على الحظ وحده ، مثل لعب النرد ، وهو الذى يسميه أهل مصر « الطاولة » ، بخلاف ما يقوم على إعمال الذهن مثل الشطرنج ، فالراجح جوازه بشروط ، وقد ذكرتها فى « الحلال والحرام » وفصَّلتها فى الجزء الثانى من « فتاوى معاصرة » .

(ز) الألعاب التى يدخل فيها الميسر (القمار) فإنه قرين الخمر فى كتاب الله ، وهو رجس من عمل الشيطان .

(ح) الألعاب التى فيها استخفاف بكرامة الإنسان ، أو السخرية به ، أو جعله أضحوكة أو « مسْخرة » للآخرين ، سواء أكان شخصاً معيناً أم فئة من المجتمع ، كالعميان أو العرجان ، أو ذوى اللَّون الأسود ، أو أصحاب مهنة معينة ، إلا فى حدود ما يجيزه العُرف العام ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أن يكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ (١) .

(ط) المبالغة فى اللَّعِب ، على حساب أمور أخرى ؛

---

(١) الحجرات : ١١

فإن اللَّعِب من « التحسينيات » فلا ينبغى أن تطغى على الحاجيات ، فكيف بالضروريات ؟ . وكل المباحات مقيَّدة بعدم الإسراف ، فإن الله لا يحب المسرفين ، ومشروطة بألا تشغل عن واجب دينى أو دنيوى ، والمطلوب من المجتمع المسلم - كما هو مطلوب من الفرد المسلم - أن يوازن بين المطالب ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .

ولهذا لا يُقبل فى ميزان الإسلام : أن تطغى لعبة واحدة مثل « كرة القدم » على كل الألعاب والرياضات ، وما هو أهم من ذلك كله من عبادة الله ، وعمارة الأرض ، ورعاية حقوق الخلق ، حتى غدت فى بعض البلاد ، وبعض الأحيان ، وكأنها وثن يُعبد ! وأصبح لاعب الكرة « يُباع » بمئات الآلاف ، وربما بالملايين ، وبعض أهل الفكر والعلم لا يكادون يجدون قوتهم ، لأن موهبة القدم أهم من موهبة الرأس ! فالإنسان بأسفله لا بأعلاه !

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

فن الجمال المسموع (الغناء والموسيقى)

(٣٠ - ٩٠)

الصفحة

فن الجمال المرئى

(الرسم والتصوير والزخرفة)

(٩١ - ١١٩)

الصفحة

فن الفكاهة والمرح (الكوميديا)

(١٢٠ - ١٤٣)

فن اللَّعِب

(١٤٤ - ١٥١)

الصفحة

* * *

المؤلف فى سطور

ولد ونشأ فى مصر ، وحفظ القرآن الكريم وجوّده وهو دون العاشرة ، وأتم تعليمه فى الأزهر الشريف .

حصل على الشهادة العالية من كلية أُصول الدين عام ١٩٥٣م ، وعلى إجازة التدريس عام ١٩٥٤م ، وكان ترتيبه الأول فى كلتيهما ، كما حصل على الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٣ م .

عمل بعد تخرجه فى مراقبة الشؤون الدينية بالأوقاف ، وإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر، ثم أُعير إلى قَطَر مديراً لمعهدها الدينى ، فرئيساً مؤسساً لقسم الدراسات الإسلامية بكليتى التربية ، فعميداً مؤسساً لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، ومديراً لمركز بحوث السُّنَّة والسيرة الذى كُلِّف بتأسيسه ولا زال يديره .

اشتغل بالدعوة منذ فجر شبابه ، وشارك فى الحركة الإسلامية ، وأُوذى فى سبيلها بالاعتقال عدة مرات ، فى

عهد الملكية وعهد الثورة .. وتنوع عطاؤه بتنوع مواهبه ، فهو خطيب مؤثر ، يقنع العقل ويهز القلب .. وكاتب آصيل لا يكرر نفسه ولا يقلد غيره .. وفقيه تميَّز بالرسوخ والاعتدال ، فشرّقت فتاواه وغرّبت .. وعالِم متمكن فى شتّى العلوم الإسلامية ، جمع بين علوم أهل النظر ، وعلوم أهل الأثر .. وشاعر حفظ شعره الشباب الإسلامى وتغنَّى به فى المشرق والمغرب .

جاوزت مؤلفاته الخمسين ، وقد لقيت قبولاً عاماً فى العالَم الإسلامى ، وطُبع بعضها عشرات المِرات ، وتُرجم عدد كبير منها إلى اللُّغات الإسلامية ، واللُّغات العالَمية ، أما مقالاته ومحاضراته وخطبه ودروسه فيصعب حصرها .

وصفه الذين كتبوا عنه بأنه من المفكرين الإسلاميين القلائل ، الذين يجمعون بين مُحْكمات الشرع ومقتضيات العصر ، وبأن كتاباته تميَّزت بما فيها من دقة الفقيه ، وإشراقة الأديب ، ونظرة المجدد ، وحرارة الداعية .

عضو فى عدة مجامع ومؤسسات علمية ودعوية وعربية وإسلامية وعالمية ، منها : المجمع الفقهى لرابطة العالَم

الإسلامية بمكة ، والمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ، ومركز الدراسات الإسلامية بأكسفورد، ومجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالَمية بإسلام آباد ، ومنظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم . . . ورئيس لهيئة الرقابة الشرعية فى عدد من المصارف الإسلامية .

زار عدداً كبيراً من الأقطار الإسلامية فى آسيا وإفريقيا ، والتجمعات والأقليات الإسلامية فى سائر القارات ، ودُعِىَ إلى المحاضرة فى عدد من الجامعات الإسلامية والعالَمية ، كما شارك فى عدد جم من المؤتمرات والندوات العلمية داخل العالَم الإسلامى وخارجه .

من أبرز دعاة (الوَسَطية الإسلامية) التى تجمع بين السَّلَفية والتجديد . وتمزج بين الفكر والحركة ، وتركز على فقه السنن ، وفقه المقاصد ، وفقه الأولويات ، وتوازن بين ثوابت الإسلام ومتغيرات العصر ، وتتمسك بكل قديم نافع ، كما ترحب بكل جديد صالح، تستلهم الماضى ، وتعايش الحاضر ، وتستشرف المستقبل .

دار الفرقان للنشر والتوزيع

الإدارة والمكتبة - العبدلي - عمارة جوهرة القدس
مقابل وزارة التربية والتعليم
هاتف : ٦٤٠٩٣٧ - ٦٤٥٩٣٧ - فاكس : ٦٢٨٣٦٢
ص.ب : ٩٢١٥٢٦ عمان - الأردن
مكتبة دار الفرقان - إربد - مقابل جامعة اليرموك
هاتف : ٢٧٦٥٠٦